في
مجال
العقيدة

في
مجال العقيدة
نقد وعرض

غَازِيْ التوبة


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

إِنَّ الْحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ له، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ, وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صلى الله عليه وسلم.

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ) [آلِ عِمْرَانَ: ١٠٢].

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا) [النِّسَاءِ: ١].

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا) [الْأَحْزَابِ:70 – 71].

أَمَّا بَعْدُ:

فقد ألفت كتابي «في مجال العقيدة: نقد وعرض» قبل عشرين عامًا تقريبًا في إطار اهتمامي بإعادة الفاعلية للمسلم المعاصر، وفي إطار تحديد العوامل التي أضعفت تلك الفاعلية، وقد تناولت فيه «العقيدة الأشعرية» لأنها العقيدة الأكثر ذيوعًا في العالم الإسلامي، وقد أتبعت هذا الكتاب بكتاب آخر أكثر تفصيلًا وهو «جذور أزمة المسلم المعاصر: الجانب النفسي» يمكن أن يعود إليه من شاء التوسع في هذا المجال وفي إطار التوجه نفسه.

وها أنذا أقدّم للطبعة الثانية كتابي «في مجال العقيدة: نقد وعرض» لإعتقادي أنه ما زال له دور يمكن أن يؤدّيه في حياة المسلم المعاصر، ويتلخص في هذا الدور في تصويب النظرة العقائدية في عدة مجالات منها: شخصية أبي الحسن الأشعري، صفات الله تعالىٰ، دور القرآن الكريم في

بناء تأليه الله تعالىٰ... إلخ.

وإنني أرجّح أن المسار العقائدي في تاريخه الطويل ما زال بحاجة إلىٰ مزيد من التحليل والمراجعة والتقويم للوصول إلىٰ ما هو حق وصواب من أجل البناء عليه في مرحلة النهوض القادمة، وآمل أن يشكّل كتابي هذا في طبعته الثانية لبنة علىٰ هذا الصعيد، والله هو الموفّق إلىٰ كل خير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الأحد في 16 من محرم 1425هـ
الموافق 7 من آذار (مارس) 2004 م

المؤلف

غَازِيْ التوبَة

www.al-ommah.org

مقدمة الطبعة الأولىٰ

إِنَّ الْحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ له، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ, وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صلى الله عليه وسلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[2]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾[3].

أَمَّا بَعْدُ:

فقد قلت فاعلية المسلم وإيجابيّته وتأثيره في الواقع منذ فترة من الوقت، أصبح يتسم بالسلبية والانهزامية، ويتصف باللامبالاة، وأصبح مرتعًا خصبًا لمختلف الأمراض النفسية والاجتماعية.

وليس من شك بأن أحد أسباب مرضه هي المناهج الموروثة التي لم تكتف بنور الوحي الإلهي، بل لوثته بجهل البشر وقصورهم وأخطائهم.

وقد جرت عدة محاولات لتغيير واقع الإنسان المسلم، لكنها لم تفلح لعدة أسباب، أحدها: أنها لم تنقّ المناهج الموروثة، ولم تنخلها، ولم تغربلها، ولم تجر عملية فرز فيها: فليس كل ما ورثناه في القرون الماضية صحيحًا، وليس كله خطأ، بل تداخل الأمران، وعلينا حتىٰ ننشئ المسلم (المعافىٰ) أن نطرح العوامل الخاطئة.

لذلك وسعيًا وراء تبيّن الحق، وإرساء لبنة في جداره، سأحاول في

(1) [آلِ عِمْرَانَ: ١٠٢] .
(2) [النِّسَاءِ: ١] .
(3) [الأَحْزَابِ:70 – 71].

كتابي هذا (تنقية) و(غربلة) و(فرز) ما ورثناه في مجال العقيدة، وليس من شك بأن الأصل الذي سأعتمده في (التنقية) و(الغربلة) و(الفرز) هو الوحي الإلهي المتمثل في القرآن الكريم والسنة المشرفة.

لذلك تحقيقًا للغرض السابق فقد استعرضت نشأة العقيدة الأشعرية علىٰ يد أبي الحسن الأشعري، وحدّدت الجديد الذي أضافه، ثم عرضت كتاب (شرح العقائد النسفية) للتفتازاني، ثم كتاب (شرح جوهرة التوحيد) للباجوري، وقد انتقيت هذين الكتابين لأنهما من الكتب المعتمدة في التدريس في المدارس الإسلامية الكبرىٰ كالأزهر في مصر، والزيتونة في تونس، وفي المعاهد الشرعية الإسلامية بشكل عام، واعتمادها يشير إلىٰ قيمتهما وأهميتهما.

وانتقيتهما كذلك لأنهما كتبا في زمانين متباعدين: فالتفتازاني توفي عام 791هـ، والباجوري توفي عام 1277هـ، وكان قصدي من ذلك إلقاء بعض الأضواء علىٰ تطور العقيدة[1] الأشعرية ليدرك القارئ منحىٰ التطور الخاطئ ومداه.

ثم دونت في نهاية حديثي عن الشخصيات الثلاثة بعض الملاحظات التي يمكن أن تؤخذ علىٰ هذا الاتجاه.

وقد كان حديثي عن (العقيدة الأشعرية) مدخلًا لاستخلاص (العقيدة) من القرآن الكريم والسنة المشرفة فعرضت وحددّت معانيها المهمة، ثم بيّنت كيفية بناء الإسلام والإيمان والقرآن لها، ثم وضّحت ثمراتها في مجال تطهير الإنسان، وكيف أنّها تبني (المسلم الصحابي) الذي افتقدناه في ساحتنا الحالية.

والله أسأل أن أكون قد وفقت إلىٰ الصواب، وهديت إلىٰ الرشاد، وله الفضل في كل الأحوال.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

(1) هناك بحث مطوّل عن تاريخ العقيدة الأشعرية بشكل خاص وعقائد أهل السنة بشكل عام وأسأل الله أن ييسر إخراجه وطباعته.

« أبو الحسن الأشعري ونشأة العقيدة الأشعرية »

حياته:

أبو الحسن الأشعري هو علي[1] بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن عبد الله بن موسىٰ بن بلال بن بردة بن أبي موسىٰ الأشعري، إذن ينتهي نسبه إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد الحكمين عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ولد أبو الحسن الأشعري رحمه الله في البصرة عام 260هـ، والتحق بالمعتزلة مبكرًا، ودرس مذهب الاعتزال علىٰ الجبائي رئيس معتزلة البصرة، واستمر في الدراسة حتىٰ بلغ في الاعتزال مبلغًا خطيرًا كان له أكبر الأثر في تقدير أستذه له وإنابته عنه في بعض المجادلات والمناظرات، واستمر علىٰ هذا الوضع حتىٰ بلغ الأربعين من عمره.

ثم اعتزل في بيته في البصرة عدة أيام وخرج إلىٰ المسجد فيها، ورقي كرسيًا ثم نادىٰ: «من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فانا أعرّفه بنفسي: أنا فلان بن فلان، كنت قد قلت بخلق القرآن، وأن الله لا يرىٰ بالأبصار، وأن أفعال الشر أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع»[2].

فما السبب الذي جعل أبا الحسن الأشعري يتحول من مذهب المعتزلة إلىٰ نصرة مذهب أهل السنة؟

يذكر المؤرخون ثلاثة أسباب لهذا التحول:

أولها: مناظرة مع أستاذة الجبائي:

(ناظر أستاذه الجبائي في ثلاثة: مؤمن وكافر وصبي، وقد أجابه أستاذه أن المؤمن من أهل الدرجات، والكافر من أهل الهلكات، والصبي من أهل النجاة، فقال الأشعري: إن أراد الصبي أن يرقىٰ إلىٰ أهل الدرجات، هل يمكن؟

قال الجبائي: يقال له: إن المؤمن نال هذه الدرجة بالطاعة وليس لك مثلها.

قال الأشعري: فإن قال: التقصير ليس مني فلو أحييتني كنت عملت من الطاعات كعمل المؤمن.

(1) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلىٰ الإمام أبي الحسن الأشعري، ابن عساكر (ص34) .
(2) ابن النديم، الفهرست، ص271، ط، مصر.

قال الجبائي: يقول له: كنت أعلم لو بقيت لعصيت ولعوقبت، فراعيت مصلحتك فأمتّك قبل أن تنتهي إلىٰ سن التكليف.

قال الأشعري: لو قال الكافر: يا رب علمت حاله كما علمت حالي، فهلّا راعيت مصلحتي مثله، فانقطع الجبائي)[1].

وينقل السبكي مناظرة أخرىٰ في أسماء الله هل هي توقيفية؟

وسواء أكانت هذه المناظرة أم تلك هي التي فصمت علاقة الأشعري بأستاذه الجبائي، نستطيع أن نقول: إن أحد أسباب انتهاء علاقة الأشعري بمذهب الاعتزال عجز أستاذه عن الإجابة إجابة مقنعة في إحدىٰ القضايا المطروحة بينهما.

ثانيهما: رؤاه:

تذكر الكتب التي أرّخت لحياة الأشعري أن أحد أسباب تحوله من مذهب الاعتزال إلىٰ مذهب أهل السنة رؤياه للرسول صلى الله عليه وسلم يدعوه إلىٰ ترك الكلام، ونصرة مذهب أهل السنة.

ثالثهما: تأثره بالشافعي رحمه الله:

كان أبو الحسن الأشعري شافعي المذهب، وقد درس الفقه الشافعي[2] في الوقت الذي كان يدرس مذهب الاعتزال، وربما كانت عقلية الشافعي الفذة عاملًا أثّر في أبي الحسن الأشعري وحولّه[3]، وخاصة إذا أدركنا أن الشافعي رحمه الله قد جمع بين القواعد والفروع، وتوسّط بين أهل الرأي وأهل الحديث، فكان مذهبه أقصد المذاهب، وأوسطها.

وقد تحوّل أبو الحسن الأشعري في النهاية من مذهب الاعتزال إلىٰ مذهب أهل السنة لسبب أو لأكثر، فماذا قال؟ وبماذا أجاب؟ فقد أصبح ما قاله عمدة لأقوال أهل السنة فيما بعد.

إن ما وصلنا مما كتبه أبو الحسن الأشعري ثلاثة كتب ورسالتان، أما الكتب فهي:

1. مقالات الإسلاميين.
2. الإبانة عن أصول الديانة.
3. اللمع في الرد علىٰ أهل الزيغ والبدع.

---

(1) السبكي، طبقات الشافعية، ج2، ص (250-251).

(2) يذكر السبكي أن أبا الحسن الأشعري درس الفقه الشافعي علىٰ أبي اسحاق المروزي (طبقات الشافعية،ج2،ص248).

(3) انظر تفصيل هذا الرأي في كتاب (تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية) مصطفىٰ عبد الرزاق،ص225.

أما الرسالتان فهما:

1. رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام.
2. رسالة كتب بها إلىٰ أهل الثغر بباب الأبواب.

أما الكتاب الأول: (مقالات الإسلاميين) فقد استعرض الأشعري فيه أقوال الفرق الإسلامية: الشيعة والخوارج والمعتزلة إلخ... ويعتبر من أوثق الكتب التي أرّخت وجهات نظر الفرق التي تحدث عنها، ونحن لن نتعرض له لأنه لا يفيدنا في تبيين وجهات نظر الأشعري، أما الكتابان الآخران والرسالتان فقد عرض فيها أبو الحسن الأشعري ردوده علىٰ المعتزلة، وأقام الحجة عليهم، وبيّن فيها آراءه ونحن سنستعرضها من أجل استيضاح وجهات نظره، وسنبدأ بكتاب (اللمع في الرد علىٰ أهل الزيغ والبدع) ثم سنثني بكتاب (الإبانة عن أصول الديانة)، ثم سنبيّن الجديد الذي جاء به، ثم سنبيّن العوامل التي ساعدت علىٰ انتشار العقيدة المنسوبة إليه والمسماة بالعقيدة الأشعرية.

1. اللمع في الرد علىٰ أهل الزيغ والبدع:

يدلّل الأشعري في كتاب (اللمع في الرد علىٰ أهل الزيغ والبدع) علىٰ الخالق، ويذكر الإنسان دليلًا علىٰ ذلك: لأن الثوب المنسوج يدل علىٰ الناسج، والقصر المبني دل علىٰ الباني، يتبع ذلك بقوله تعالىٰ: (ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ)[1] وقوله تعالىٰ: (وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)[2].

ثم يتحدث عن صفات الله تعالىٰ فيتساءل: لم زعمتم أن الباري سبحانه لا يشبه المخلوقات؟ ويرد علىٰ ذلك:

بحدوث المخلوقات، ثم يتبع ذلك بقوله تعالىٰ: (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ)[3]، (وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ)[4]. ثم يرد علىٰ شبهة كون الله تعالىٰ جسمًا، ثم يقدم الدلائل علىٰ كون الله تعالىٰ سميعًا بصيرًا، ثم يبيّن أن الله عالم بعلم، ويستشهد بقوله تعالىٰ: (أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ)[5] وقوله تعالىٰ: (وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ)[6].

ثم ينتقل إلىٰ موضوع آخر هو: (الكلام في القرآن)، ويدلّل علىٰ تكلم الله سبحانه بقوله تعالىٰ: (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)[7]، ويرد علىٰ شبهة خلق القرآن.

ثم يذكر دليلًا آخر علىٰ أن الله لم يزل متكلمًا ثم يذكر مسائل أخرىٰ في صدد كلام الله ويرد عليها.

ثم ينتقل إلىٰ (باب الكلام في الإرادة وأنها تعم سائر المحدثات).

ثم يرد علىٰ بعض شبه المعتزلة.

ثم ينتقل إلىٰ الكلام في الرؤية فيؤكد وجهة نظر أهل السنة برؤية الله

---

(1) الواقعة، آية رقم: [59].
(2) الذاريات، آية رقم: [21].
(3) الشورىٰ، آية رقم: [11].
(4) الإخلاص، آية رقم: [4].
(5) النساء، آية رقم: [166].
(6) فاطر، آية رقم: [11].
(7) النحل، آية رقم: [40].

تعالىٰ بالأبصار يوم القيامة، ويفند أقوال المعتزلة في هذا المجال.

2. الإبانة عن أصول الديانة:

أما كتاب (الإبانة عن أصول الديانة) فقد دار كلام الأشعري فيه حول محورين: الأول: أقوال المخالفين، والثاني: أقوال أهل السنة.

وقد ذكر في الفصل المعنون: (فصل في قول أهل الزيغ والبدع)[1]: إنكارهم رؤية الله عز وجل يوم القيامة بالأبصار، وإنكار شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وجحودهم عذاب القبر، وقولهم بخلق القرآن وإثباتهم للعباد خلق الشر، وحكمهم علىٰ العصاة بالخلود في النار، وإنكارهم صفات الله تعالىٰ وتعطيلهم لها، ونفيهم نزول الله تعالىٰ كل ليلة إلىٰ السماء الدنيا.

ثم يبيّن (قول أهل الحق والسنة)[2]: وهو: الإقرار باستقرار الله تعالىٰ علىٰ العرش علىٰ الوجه الذي قاله وبالمعنىٰ الذي أراده، وبأن له تعالىٰ وجهًا ويدين وعينين بلا كيف، وبإثبات العلم والسمع والبصر له تعالىٰ، وبأن كلامه تعالىٰ غير مخلوق، وأنه لا يكون في الأرض شيء من خير أو شر إلا ما شاء بقضاء الله تعالىٰ وقدره، وأن الله يُرىٰ في الآخرة بالأبصار، وبعدم تكفير أحد من أهل القبلة بذنب يرتكبه، وبرجاء الجنة للمذنبين، وبالإيمان بعذاب القبر، وبأن الميزان حق، وبأن البعث حق، وبتولي جميع الصحابة، وبالاعتراف بأن الأئمة الأربعة خلفاء راشدون مهديون، وبالتصديق بالروايات التي يثبتها أهل النقل عن نزول الرب عز وجل إلىٰ السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل، وبمجيء الله تعالىٰ يوم القيامة بلا كيف، وبصلاة الجمعة والأعياد خلف كل برّ وفاجر، وبالمسح علىٰ الخفين إلخ....

ثم يدلّل علىٰ كل الآراء السابقة، ويثبت بطلان آراء الخصوم ثم يناقش في الأبواب الأخيرة آراء المعتزلة في الشفاعة والحوض، وعذاب القبر، وإمامة أبي بكر الصديق.

3. ما جديد أبي الحسن الأشعري؟

إذن نلاحظ أن الكتابين يشتركان في الحديث عن صفات الله تعالىٰ

(1) الأشعري: كتاب الإبانة عن أصول الديانة (ص:14).
(2)المرجع السابق نفسه، (ص20) .

وربما نالت صفة الكلام وفرعها خلق القرآن أكبر قسط منه، وينفرد الكتاب الأول في الحديث عن وجود الله والتدليل عليه.

ونجد أن السمة العامة التي تسم الكتابين هي سمة الدفاع التي ستصبح فيما بعد سمة كتب العقائد جميعها، والتي ترد علىٰ آراء المخالفين وبالذات «المعتزلة».

إذن فصّل أبو الحسن الأشعري في الدفاع والرد، وأغفل الوجه الإيجابي من الدين بكل ما يشمله: من تأليه للرب، وتعظيم له تعالىٰ، وتوتر تعيشه النفس البشرية من أجل تحقيق هذا التعظيم، وصوارف تبعدها عنه إلخ....

والسؤال الآن: ما الجديد الذي جاء به أبو الحسن الأشعري في مجال الدفاع عن (عقائد أهل السنة)؟ يمكن أن نبحث عن جديد أبي الحسن الأشعري في مجالين:

الأول: مضمون الدفاع.

الثاني: وسيلة الدفاع.

أما في المجال الأول فلم يأت الأشعري بأي جديد، بل تابع (أهل الحديث والسنة)، فقد رفض القول بخلق القرآن، وأثبت صفات الله تعالىٰ مثل: الوجه والدين والأعين إلخ...، وأقر برؤية الله تعالىٰ بالأبصار يوم القيامة وأثبت عذاب القبر، وأقر بخلق الله لأفعال الإنسان إلخ...

ولماذا نذهب بعيدًا؟!! وهو الذي قد صرّح في موضعين بانه تابع لـ «أهل الحديث والسنة» وممثلهم «أحمد بن حنبل» رضي الله عنه، الذي يعتبر رمزًا للصفاء الديني الذي واجه موجة (الإبتداع المعتزلي) بجسده وفكره فقال في كتاب «مقالات الإسلاميين» بعد أن كتب فصلًا معنونًا بـ «هذه حكاية جملة قول أصحاب الحديث وأهل السنة»، وعرف فيه آراءهم في مختلف القضايا، وأنهىٰ عرضه قائلًا: «فهذه جملة ما يأمرون به، ويستعملونه، ويدوّنونه، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول، وإليه نذهب، وما توفيقنا إلا بالله، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وبه نستعين، وعليه نتوكل، وإليه المصير»[1].

وقال في كتاب «الإبانة عن أصول الديانة» في الفصل المعنون بـ «في إبانة قول أهل الحق والسنة»: قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين به: التمسك بكتاب الله ربنا عز وجل، وبسنة نبينا محمد صلى الله عليه

(1) مقالات الإسلاميين ج1،ص350.

وسلم، وما روي عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد حنبل نضّر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته قائلون، ولما خالف قوله مخالفون، لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق، ودفع الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائفين، وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدم، وجليل معظم وكبير مفهم»[1].

وإن عدم إتيانه بأي جديد في مضمون آرائه جعل بعض الكتّاب مثل الدكتور عبد الرحمن بدوي ويوسف مكارثي يستغربون الضجة التي أثيرت حوله، ويتساءلون: لماذا احتل إذن هذه المكانة في تاريخ العقائد؟ ويتشككون في العبارة التي نقلت عنه والتي صرّح فيها بمتابعة أهل الحديث[2]، ويحاولون في اكتشاف الجديد وإلصاقه به[3]، ويضطرون في سبيل تحقيق غايتهم إلىٰ تجاوز ما وصلنا من كتبه وإلىٰ نقل ما دوّن عنه في كتب أخرىٰ.

الثاني: وسائل الدفاع عن «قول أهل الحديث والسنة»:

لم يكتف أبو الحسن الأشعري بدلائل القرآن والحديث علىٰ الحقائق التي طرحها كتاب الله تعالىٰ بل دعا إلىٰ اعتماد علم الكلام للدفاع عن حقائق الدين، وتدعيمها، وقد وصلتنا رسالة صريحة منه تصب في الهدف السابق بعنوان: «رسالة الاستحسان في خوض علم الكلام» يرد فيها علىٰ الفئة التي ترفض الاستفادة من (علم الكلام) لتدعيم آراء أهل السنة، وهو بدعوته تلك أحدث شرخًا في البناء الذي أقامه كبار علماء أهل السنة نحو علم الكلام مثل: الشافعي، ومالك، وأحمد بن حنبل، وتلاميذ أبي حنيفة رضي الله عنهم أجمعين.

فقد نقل عن الشافعي قوله يوم ناظر حفصًا الفرد وكان من متكلمي المعتزلة[4]: لأن يلقىٰ الله عز وجل بكل ذنب ما خلا الشرك خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام؛ ولقد سمعت من حفص كلامًا لا أقدر أن أنقله ، وقال أيضًا: لقد اطلعت من أهل الكلام علىٰ شيء ما ظننته قد ولأن يبتلي

---

(1) الإبانة عن أصول الديانة (ص202) ط مكتبة دار الأنصار القاهرة، عام 1977 بتحقيق د. فوقية حسين محمود.
(2) انظر مذاهب الإسلاميين، د. عبد الرحمن بدوي، ج1،ص350.
(3) انظر المرجع السابق ذاته ص531.
(4) أقوال الشافعي منقولة جميعها من إحياء علوم الدين ج1، ص95.

العبد بكل ما نهىٰ الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام.

وسئل رضي الله عنه مرة عن الكلام فغضب وقال: سل عن هذا حفصًا الفرد وأصحابه، أخزاهم الله.

ولما مرض الشافعي رضي الله عنه دخل عليه حفص الفرد فقال له: من أنا؟ فقال: حفص الفرد، لا حفظك الله ولا رعاك حتىٰ تتوب مما أنت فيه.

وقال أيضاً: لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد.

وقال أيضًا: اذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمىٰ أو غير المسمىٰ فاشهد أنه من أهل الكلام ولا دين له.

وقال أيضًا: حكمي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام.

وقال أحمد بن حنبل[1] رضي الله عنه: لا يفلح صاحب الكلام أبدًا ولا نكاد نرىٰ أحدًا نظر في الكلام إلا وفي قلبه دخن).

وقال أيضًا: (علماء الكلام زنادقة).

وقال مالك بن أنس[2] رحمه الله: «أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد». وقال أيضًا: «لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء»، فقال بعض أصحابه في تأويله: إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام علىٰ أي مذهب كانوا. وقال مالك[3] أيضًا: «الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه، نحو الكلام في رأي جهم والقدر وما أشبه ذلك، ولا أحل الكلام إلا فيما تحته عمل».

وقال أبو حنيفة[4] رضي الله عنه: (لعن الله عمرو بن عبيد فإنه فتح للناس الطريق إلىٰ الكلام فيما لا يعنيهم من الكلام).

وقد قال أبو يوسف[5] تلميذ أبي حنيفة رضي الله عنهما: (من طلب العلم بالكلام تزندق).

وقد ترسّخت دعوة أبي الحسن الأشعري مع مرور الزمن وتنامت،

---

(1) إحياء علوم الدين، الغزالي، ج1، ص95.
(2) إحياء علوم الدين، الغزالي، ج1، ص95 .
(3) ابن عبد البر، (جامع بيان العلم وفضله)،ص155.
(4) (ذم الكلام وأهله)، لأبي إسماعيل الهروي.
(5) أحياء علوم الدين، الغزالي، ج1، ص95.

ولقيت قبولًا عند بعض المفكرين، بحيث تداخلت أدلة (علم الكلام) في كتب (العقائد) مع الأدلة السمعية، ثم تداخلت مع علوم أخرىٰ مثل المنطق والفلسفة، وهذا ما سنجد الشواهد الكثيرة عند دراسة كتابي: (شرح العقائد النسفية وشرح جوهرة التوحيد).

4. العوامل التي ساعدت علىٰ انتشار العقيدة الأشعرية:

وقد ترسخ منهج أبي الحسن الأشعري مع مرور الزمن وتبلور في (العقيدة الأشعرية)، ولكن هذه العقيدة لم تبق عند أتباع الأشعري علىٰ مدار التاريخ بمضمونها الذي طرحه، لكن حدث تغيير، وإضافة، وتحويل وصل إلىٰ حد مخالفته المخالفة الكاملة فيما قاله ورآه في بعض الأحيان، وسنجد الشواهد التي تبّين هذا الأمر عند دراستنا لكتابي (شرح العقائد النسفية) و(شرح جوهرة التوحيد).

أما العوامل التي أدت إلىٰ ترسيخ (العقيدة الأشعرية) في المجتمع الإسلامي، وانتشارها بين أفراده فمعظمها يعود إلىٰ ظروف المواجهة التي كانت تعيشها الدولة العباسية مع أعدائها المحيطين بها.

وقد فُرضت (العقيدة الأشعرية) رسميًا علىٰ المجتمع الإسلامي لأول مرة بمرسوم أصدره الخليفة العباسي: القادر عام 433هـ، أصبح يعرف (بالمرسوم القادري)[1] ألزم العلماء فيه بها، وهدّد المخالفين بالعقاب.

وكان هذا التصرف منه في جملة إجراءات لمواجهة الدولة الفاطمية التي كان خطرها يتعاظم علىٰ الدولة العباسية، ومما فعله أيضًا بأن شكك الخليفة القادر بعلوية الدولة الفاطمية فجمع أشراف بغداد وأخذ منهم إقرارًا بعدم صحة علوية الحكم الفاطمي.

وقد بلغ خطر الدولة الفاطمية ذروته عندما خرج البساسيري –أكبر قوّاد بني بويه- عام 450هـ علىٰ الخليفة العباسي وطرده من بغداد، وأقام الخطبة باسم الخليفة الفاطمي المستنصر، وضرب العملة باسمه أيضًا، ولكن الخليفة العباسي استنجد بطغرل بك السلجوقي فتدارك الموقف عام 451هـ، وبهذا دخلت الدولة العباسية طور نفوذ السلجوقيين.

وقد واجهت القيادة الجديدة الخطر القديم: الدولة الفاطمية والتشيع

(1) انظر مقدمة (مقالات الإسلاميين) التي كتبها محمد محيي الدين عبد الحميد (ص272)؛ وانظر كذلك كتاب المنتظم لابن الجوزي (ج7، ص109).

الفاطمي بأن روّجت (العقيدة الأشعرية) من أجل مواجهة الدعاة الفاطميين الذين كانوا ينشطون في مناطق الدولة العباسية، وأنشأت المدارس من أجل تدريسها وأبرزها المدرستان: النظامية في بغداد، والنظامية في نيسابور اللتان أنشاهما نظام الملك أبرز وزراء العهد السلجوقي؛ من أجل تخريج الدعاة ذوي العقيدة الأشعرية لمواجهة الدعاة الفاطميين.

ثم جاء صلاح الدين الأيوبي وقضىٰ علىٰ الدولة الفاطمية واستمر في اعتماد العقيدة الأشعرية علىٰ مستوىٰ الحكم لأنه كان قد تلقاها وحفظها علىٰ يد أساتذته.

نلحظ –إذن- أن العوامل التاريخية السياسية لعبت دورًا كبيرًا في ترسيخ العقيدة الأشعرية ونشرها بين المسلمين، ولم يأت رسوخها وانتشارها لأنها الحق الكامل الذي لم تشبهُ أية شائبة.

ونحن الآن بعد أن اتضحت لنا بداية تأسيس كتب العقائد علىٰ يد أبي الحسن الأشعري، وبعد أن اتضحت لنا الظروف التاريخية التي ساعدت علىٰ ترويجها، سندرس كتابين هما «شرح العقائد النسفية» للتفتازاني و«شرح جوهرة التوحيد» للباجوري كنموذجين ممثلين لها.

«شرح العقائد النسفية» للتفتازاني

سنعرض حياة كاتب العقائد أولًا، ثم بحياة شارحها ثانيًا، ثم سنناقش الشرح ثالثًا.

حياة النسفي:

هو عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن علي بن لقمان نجم الدين أبو حفص النسفي السمرقندي ويسمىٰ مفتي الثقلين.

ولد بنسف عام 461هـ وزار بغداد، وسكن بسمرقند، وتوفي بها في 12 أو 18 جمادىٰ الأولىٰ عام 537هـ.

اشتغل بالتفسير والفقه والحديث والكلام والأصول والتاريخ والأدب والشعر واللغة، أخذ الفقه عن أبي اليسر محمد البزدوي، وعن أخيه علي البزدوي فخر الإسلام، وعن عطاء بن حمزة، وعن كثير غيرهم بلغوا أكثر من خمسمائة.

له عدة مؤلفات يقال إنها بلغت المائة، منها متن (العقائد)، ويعتبره البعض كالفهرس بالنسبة لكتاب (تبصرة الأدلة) للأمام أبي المعين النسفي المتوفي عام 508هـ، وقد شرحه كثيرون، لكن شرح التفتازاني هو أهمها، وهناك كتّاب علّقوا علىٰ (شرح التفتازاني) وهم عديدون حتىٰ أنه يصعب إحصاؤهم.

حياة التفتازاني:

هو مسعود بن عمر بن عبد الله ولقبه سعد الدين، ولد عام 712هـ (1312م) بتفتازان وهي قرية قريبة من نسا في خرسان، وقد أمضىٰ فترة طويلة من حياته بسرخس، وكان مثالًا لطلب العلم، فانضم إلىٰ طلبة عضد الدين الإيجي صاحب كتاب (المواقف) ثم سافر إلىٰ دمشق، وأخذ فيها عن قطب الدين الرازي التحتاني الذي كان يقيم في الطابق السفلي من المدرسة الظاهرية، وقد اشتهر في كثير من البلدان بغزارة علومه، وتنوع مؤلفاته في العربية والمنطق والبيان والنحو والتصريف والفقه وأصوله والكلام.

ثم انتقل إلىٰ خوارزم وأقام بها مدة وذلك حوالي 768هـ.

وكتب فيها عدة كتب، ولما اجتاحها تيمورلنك عام (780-781هـ) أرسل بالتفتازاني إلىٰ سرخس بناء علىٰ طلب أحد قوّاده، لكن عاد فاستقدمه إلىٰ سمرقند عندما علم بمكانته العلمية وعامله معاملة كريمة.

توفي التفتازاني في سمرقند عام (791هـ) (1389هـ) علىٰ الأغلب ثم نقل إلىٰ سرخس حيث دفن بها، ويقال أن سبب وفاته كان همًّا أصابه بعد مناقشة علمية جرت بينه وبين الجرجاني بمحضر تيمورلنك وكان هذا منحازًا إلىٰ جانب الجرجاني وفضله عليه، إذ من المعروف أن الجرجاني كان أفصح في كلامه من التفتازاني الذي كان يشكو من لكنة في لسانه، علىٰ عكس كتابته التي كان متفوقًا فيها علىٰ منافسه.

وعندما شاع خبر بروزه عليه في المناقشة شعر بغم كبير ولم يلبث طويلًا حتىٰ توفي.

والآن: بعد أن ألممنا بحياة المولّف والشارح سننتقل إلىٰ نقد مضمون الكتاب وتحليل محتواه.

ثنائية «العقيدة والشريعة»

يقسم التفتازاني في مقدمته الأحكام الشرعية إلىٰ قسمين: (ما يتعلق بكيفية العمل وتسمىٰ فرعية وعملية، ومنها ما يتعلق بكيفية الاعتقاد وتسمىٰ أصلية واعتقادية، والعلم المتعلق بالأولىٰ يسمىٰ علم الشرائع والأحكام كما أنها لا تستفاد إلا من جهة الشرع، ولا يسبق الفهم عند إطلاق الأحكام إلا إليها، وبالثانية: علم التوحيد والصفات لما أن ذلك أشهر مباحثه وأشرف

مقاصده)[1].

إن ثنائية تقسيم الدين إلىٰ عقيدة وشريعة من أخطر الأمور التي جرّت آثارًا سيئة علىٰ ديننا الحنيف، وذلك لأن هذا التقسيم مخالف لحقيقة الدين التي تقوم علىٰ أمر واحد وهو تأليه الله عز وجل وحده، ويشمل تأليه الله الخوف منه تعالىٰ، والرجاء فيه، وحبّه، وطاعته عز وجل فيما شرع لنا.

وقد استمر بناء هذا التأليه من اللحظة التي صدع فيها الرسول صلى الله عليه وسلم لأمر الله في غار حراء إلىٰ اللحظة التي توفي فيها عليه الصلاة والسلام في حجرة عائشة رضي الله عنها في المدينة المنورة، ولولا استمرار وجوده هذا التأليه لانهار بناء المسلمين في المدينة ، و إن اختلاف صورة التعبير عن التأليه هو الذي جعل المفسرين يقعون في الخطأ، فالتعبير عنه في المدينة كان في أمور ظاهرة في المسجد وفي الشارع وفي البيت إلخ...، في حين أنه كان محصورًا في مكة ضمن نطاق النفوس المسلمة وجماعتها.

ومن أبرز الآثار السلبية التي تركها هذا التقسيم اعتقاد كثير من المسلمين أن هناك مرحلتين في حركة الدعوة الإسلامية وفي بناء الأشخاص:

أولاهما: مرحلة بناء العقيدة ويقصد بها معرفة أمور عقلية فيما يتعلق بذات الله وصفاته وغيره وهي مرحلة مكة.

ثانيهما: مرحلة تطبيق الشريعة الإسلامية وهي مرحلة المدينة.

وهذا مخالف لما صدع به رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت به الآيات الكريمة، إذ نجد أن آيات شرعت بعض الأحكام في مكة[2]، وأخرىٰ تحدثت عن صفات الله في المدينة[3].

تعليله استغناء الصحابة عن علم التوحيد:

يعلّل التفتازاني استغناء الصحابة عن تدوين علمي العقيدة والشريعة وترتيب الأبواب والفصول وتقدير المقاصد بعدة أسباب: «صفاء عقائدهم ببركة صحبة النبي صلى الله عليه وسلم وقرب العهد بزمانه، ولقلة الوقائع

(1) شرح العقائد النسفية: التفتازاني، (ص4).
(2) انظر إلىٰ الآيات (26-35) من سورة الإسراء، وانظر أيضًا الآيات (38-42) من سورة الشورىٰ.
(3) انظر إلىٰ الآيات الأولىٰ من سورة الحديد وهي سورة مدنية.

والاختلافات، وتمكنّهم من المراجعة إلىٰ الثقات»[1].

إن الأسباب التي تحدث عنها التفتازاني تقدم بعضًا من الحقيقة وليس كل الحقيقة، إذ أن الصحابة رضي الله عنهم استغنوا عن أي تدوين لعلمي العقيدة والشريعة باعتمادهم القرآن الكريم والسنة الشريفة بالإضافة إلىٰ العوامل الأخرىٰ التي ذكرها التفتازاني فيما سبق.

معرفة العقائد بأدلة علم الكلام:

ثم يبيّن التفتازاني ارتباط العلوم بأدلتها، فيقول:

«وسمّوا ما يفيد الأحكام العملية بأدلتها التفصيلية بالفقه، ومعرفة أحوال الأدلة إجمالًا في إفادتها الأحكام بأصول الفقه، ومعرفة العقائد من أدلتها بالكلام»[2].

ثم يبيّن أسباب تسمية أدلة العقائد بعلم الكلام فيذكر لذلك عدة أسباب منها: «لأن عنوان مباحثه كان قولهم: الكلام كذا وكذا، ولأن مسألة الكلام كان أشهر مباحثه وأكثرها نزاعًا وجدالًا، ولأنه يورث قدرة علىٰ الكلام في تحقيق الشرعيات وإلزام الخصوم، ولأنه أول ما يجب من العلوم التي إنما تعلّم وتتعلّم بالكلام، ولأنه إنما يتحقق بالمباحثة وإثارة الكلام من الجانبيين... »[3].

إذن يعترف التفتازاني بأن دليل العقائد يؤخذ من علم الكلام، وهذا ما وقع تاريخيًا، ويعلّل الكاتب ذلك بتعليلات مختلفة، لكن هذا الاتجاه إلىٰ الاستعانة بعلوم أخرىٰ لإثبات حقائق قرآنية يتهم القرآن الكريم ويوحي بنقصه وهذا محال، إضافة إلىٰ أن القرآن الكريم له أدلته الخاصة التي تدعم حقائقه، وهذا واضح لمن له أدنىٰ إلمام بالقرآن الكريم.

اختلاط علم الكلام بالفلسفة:

يذكر التفتازاني اختلاط علم الكلام بالفلسفة فيقول:

«ثم لما نقلت الفلسفة إلىٰ العربية وخاض فيها الإسلاميون، حاولوا الرد علىٰ الفلاسفة فيما خالفوا فيه الشريعة فخلطوا بالكلام كثيرًا من الفلسفة ليحققوا مقاصدهم فيتمكنوا من إبطالهم وهلم جرًا، وإلىٰ أن أدرجوا فيه معظم الطبيعيات والإلهيات وخاضوا في الرياضيات حتىٰ كاد لا يتميز عن

---

(1) شرح العقائد النسفية (ص4).
(2) شرح العقائد النسفية (ص5).
(3) المرجع نفسه (ص5) .

الفلسفة لولا اشتماله علىٰ السمعيات وهذا هو كلام المتأخرين »[1].

ثم يقرر أنه رأس العلوم وأشرفها، فيقول: (وبالجملة هو أشرف العلوم لكونه أساس الأحكام الشرعية ورئيس العلوم الدينية، وإن معلوماته العقائد الإسلامية، وغايته الفوز بالسعادات الدينية والدنياوية وبراهينه الحجج القطعية المؤيد أكثرها بالأدلة السمعية)[2].

إن الكلام السابق ينقض آخره أوله: فكيف يؤكد اختلاط علم الكلام بالفلسفة ثم يقرر أنه أشرف العلوم ورئيسها!!!

كيف يمكن أن يكون علمان بشريان أشرف العلوم، ويحتّلا رئاستها؟؟ أين إذن مكان القرآن الكريم؟

ومتىٰ كانت حجج الفلسفة قطعية يقينية؟ أليست كل فلسفة تهدم ما بنته سابقتها؟

الدلائل علىٰ وجود الصانع:

يثبت التفتازاني حقائق الأشياء[3] خلافًا للسوفسطائية الذين ينكرونها، ويعتبر أن اسباب العلم[4] ثلاثة: الحواس السليمة، والخبر الصادق، والعلم، ويفصل الحديث عن كل واحد منها.

ثم يتحدث عن العالم وأنه محدث[5] وأن فيه أجسامًا مركبة وجواهر وهي الأجزاء التي لا تتجزأ، وأن فيها أعراضًا[6] تلحق بالأجسام والجواهر كالألوان والطعوم والروائح...

يقدم التفتازاني بكل هذه المقدمات ليثبت أن الله –تعالىٰ هو خالق لهذا الكون؛ وليدلّل علىٰ وجوده تعالىٰ.

ليس من شك بأن إثبات خلق الله تعالىٰ لا يحتاج إلىٰ كل هذه المقدمات الطويلة لأنه أمر فطري بدليل أن المشركين أقروا واعترفوا به رغم وقوعهم في الشرك، كما حدثنا القرآن الكريم في أكثر من آية، قال تعالىٰ: (

(1) المرجع نفسه (ص8).
(2) شرح العقائد النسفية (ص8).
(3) شرح العقائد النسفية (ص9).
(4) شرح العقائد النسفية (ص12).
(5) شرح العقائد النسفية (ص24).
(6) شرح العقائد النسفية (ص28).

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ)[1]، وقال أيضًا: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ)[2]، وسنرىٰ تفصيل وجهة النظر القرآنية في نهاية استعراض أعمال الشخصيات الثلاث.

صفات الله تعالىٰ:

يتحدث التفتازاني عن صفات الله تعالىٰ فيبدأ بصفة الواحد[3]، ويذكر عليها دليل التمانع المشهور عند علماء الكلام المأخوذ من قوله تعالىٰ: (لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا)[4] ثم يتحدث عن صفات الله تعالىٰ الأخرىٰ فيذكر منها أنه: القديم، الحي، القادر، العليم،السميع، البصير، المريد[5]، ثم ينتقل إلىٰ نفي بعض الصفات عنه تعالىٰ مثل: إنه ليس بعرض ولا جسم، ولا جوهر، ولا محدود، ولا معدود، ولا متبعض، ولا متجزئ، ولا متركب، ولا متناه، ولا يوصف بالماهية، ولا بالكيفية، ولا يجري عليه زمان[6].

ثم ينتقل التفتازاني إلىٰ قضية أخرىٰ هي علاقة الذات بالصفات فيقرر إنها: ليست عين الذات ولا غيرها مخالفًا المعتزلة الذين قالوا: إن الصفات عين الذات.

نلحظ أن التفتازاني يتحدث عن صفات الله تعالىٰ حديثًا عقليًا في مجالي الإثبات والنفي؛ وربما كان إعمال العقل والاجتهاد أوضح في مجال علاقة الصفات بالذات، فالنتيجة التي توصل إليها الشارح وقررها هي: إن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها، نتيجة غامضة وغير مفهومة، ونقض آخرها أولها.

ومما يتعلق بالصفات حديثة عن قضيتين:

الأولىٰ: رؤية الله تعالىٰ[7]، فهو يقر بإمكان ذلك خلافًا للمعتزلة و

---

(1) الزخرف، آية رقم9.
(2) الزمر، آية 3.
(3) شرح العقائد النسفية. (ص33).
(4) الأنبياء، آية رقم 22.
(5) شرح العقائد النسفية (ص34) وما بعدها.
(6) شرح العقائد النسفية (ص36) وما بعدها.
(7) شرح العقائد النسفية (ص70) وما بعدها.

ويأتي بالأدلة التقليدية بصددها.

الثانية: كلامه تعالىٰ، وقد وقف موقفًا وسطًا بين المعتزلة وبين أهل السنة، فهو لم يشأ أن يقول إن القرآن الموجود بين يدينا كلام الله علىٰ الحقيقة، ولم يشأ أن يقر المعتزلة علىٰ قولهم، فجاءت فكرة الكلام النفسي القديم في ذات الله الذي عبر عنه بالعربية فكان قرآنًا، وبالعبرية فكان توراة، وهو في كل هذا استشهد ببيت شعر لشاعر نصراني هو الأخطل عندما يقول:

إن الكــلام لفـــي الفــؤاد وإنمـــا جعـل الكـلام علـىٰ اللسـان دلـيلًا

تكليف الإنسان:

يعرض الشارح أن صحة تكليف الإنسان تقتضي الاستطاعة وتعتمدها وأن الله تعالىٰ لا يكلف العبد بما ليس في وسعه، ثم يعرض رأي المعتزلة القائل بوجوب تكليف الله تعالىٰ للإنسان ما يستطيعه معتمدين علىٰ مقولة القبح العقلي، ويعرض رد الأشعري عليهم القائل: إن الله تعالىٰ لا يقبح منه شيء.

ثم يرد علىٰ رأي المعتزلة القائل بوجوب فعل الأصلح علىٰ الله تعالىٰ:

نلحظ فيما سبق جرأة المعتزلة، أو قل بصورة أدق قلة أدبهم مع الله تعالىٰ؛ وسبب ذلك اعتمادهم علىٰ العقل ومقولاته، فيوجبون علىٰ الله، ويحيلون، ويجوزون؛ طالما أن عقولهم توجب وتحيل وتجوّز؛ وربما كان خطأ بعض علماء الإسلام مناقشة المعتزلة دون بحث أصل المشكلة: وهو مدىٰ استعمال العقل: وتحديد قيمة النص القرآني والحديثي، وضرورة الاحتكام إليهما.

أحوال الآخرة:

يتحدث التفتازاني عن أمور الآخرة[1] مثل: عذاب القبر، والبعث، والوزن، والكتاب، والسؤال، والحوض، والصراط، ووجود الجنة والنار وفنائهما، ويبين أن بعض المعتزلة أنكروا عذاب القبر والوزن والصراط واستلام العباد لكتبهم، وأن الفلاسفة أنكروا البعث بالأجساد، وأن الجهمية

(1) شرح العقائد النسفية (ص104) وما بعدها.

أنكرت بقاء الجنة والنار؛ ورد عليهم، وأثبت رأيه، وأورد الدلائل التي تدعمه.

الكبائر:

ثم يتحدث الشارح عن الكبائر[1] ويعدد أنواعها، ويعرض رأي أهل السنة في أن مرتكبها لا يخرج من حيز الإيمان، ويستعرض بعد ذلك رأي المعتزلة الذي يقول أنه يقع في منزلة بين المنزلتين، ويفنّده بأدلة عقلية ونقلية.

الإيمان:

يطرح الشارح تعريف الإيمان[2] بأنه التصديق بالقلب، ويعتبر الإقرار به شرطًا لإجراء الأحكام في الدنيا، وينفي زيادته ونقصانه؛ ولا يدخل الأعمال ضمن منطوقه ، ويرىٰ أنه والإسلام شيء واحد، ولا يرىٰ جواز الاستثناء فيه.

ليس من شك بأننا نجتزئ الأمور من كلياتها عندما نعّرف الإيمان بأنه التصديق، وهي نظرة ساكنة مخالفة لنظرة القرآن الكريم حيث يربطه بتأليه الله تعالىٰ وبتعبيد النفس له تعالىٰ؛ ويطرحه بجوانبه العقلية والنفسية، وسنرىٰ تفصيل الرد علىٰ رأي (العقائد النسفية) في الإيمان في فقرة (بعض الملاحظات علىٰ كتب العقائد)

الرسل:

يتعرض الشارح إلىٰ قضية إرسال الرسل[3] من الله تعالىٰ للناس، فيذكر رأي المعتزلة القائل: بوجوب إرسال الرسل عليه تعالىٰ، ورأي السمنية والبراهمية بامتناعه، ورأي المتكلمين بإمكانه، ثم يتحدث عن المعجزات وشروطها، وعدد الأنبياء، واختلاف الفرق في حدود عصمة الرسل، وأفضلية محمد صلى الله عليه وسلم.

مرة أخرىٰ نشير إلىٰ قلة أدب المعتزلة مع الله تعالىٰ فهم يوجبون عليه تعالىٰ، وأني لمخاليق ضعاف مهازيل أن يوجبوا عليه تعالىٰ؟!!

---

(1) شرح العقائد النسفية (ص115) وما بعدها.
(2) شرح العقائد النسفية (ص129) وما بعدها.
(3) شرح العقائد النسفية (ص146) وما بعدها.

كرامات الأولياء:

يقر التفتازاني بكرامات الأولياء[1]، ويدلل عليها ببعض آيات القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة، وببعض الحوادث التي وقعت مع الصحابة؛ ثم يرد حجج المعتزلة في إنكارها.

الخلافة والإمامة:

يتحدث التفتازاني في النهاية عن الخلفاء الراشدين، ويبين أفضليتهم حسب تسلسلهم التاريخي، ويبرز أهمية وجود الإمام، ويوضح بعض أعماله، ويرد علىٰ الشيعة في قضية اختفاء الإمام، ويذكر بعض شروط توليته، ولا يشترط عصمته ولا أن يكون أفضل أهل زمانه.

****

إن الفقرات التي مرّت تحت عنوان: (أحوال الآخرة، الكبائر، والرسل، كرامات الأولياء، الخلافة والإمامة) ليست أهم ما في الدين، ولا جوهرة حتىٰ توضع في (كتب العقائد)، وليس هناك رابط يربطها بما قبلها لكن السبب الأرجح الذي جعلها تدخل ضمن هذه الكتب هي كونها ردودًا علىٰ شبهات أثارها المعتزلة وغيرهم.

****

(1) شرح العقائد النسفية (ص146) وما بعدها.

«شرح جوهرة التوحيد» للباجوري

ترجمة المؤلف والشارح

مؤلف جوهرة التوحيد هو: إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللّقاني المكّنىٰ بأبي الإمداد، الملقّب ببرهان الدين، متصوف مصري مالكي، ينسب إلىٰ (لقانة) من البحيرة بمصر، وتوفي قرب العقبة عائدًا من الحج عام 1041 للهجرة الموافق 1631 للميلاد.

أما الشارح فهو الشيخ إبراهيم بن محمد بن أحمد الباجوري شيخ الجامع الأزهر من فقهاء الشافعية نسبة إلىٰ (الباجور) من قرىٰ المنوفية بمصر، ولد ونشأ فيها عام 1198 الموافق عام1784م، وتعلم في الأزهر، وتقلد مشيخته عام1263هـ، وتوفي عام1277هـ الموافق 1860م.

والجوهرة أرجوزة نظمها اللقاني كعادة أهل العصور المتأخرة في نظم الأراجيز في مختلف العلوم والفنون، جمع فيها أحكام العقائد الإسلامية وقد شرحها الباجوري، ويعتبر هذا الشرح من الكتب المعتمدة في الأزهر، وفي العالم العربي خلال القرن الماضي، وهذا ما جعلنا نتناوله بالحديث لندرس نموذجًا مما قَبله الناس، ونهلوا منه.

تعريف علم التوحيد ومجاله:

يعرف الشارح التوحيد بعدة تعريفات منها:

(إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته والتصديق بها ذاتًا وأفعالًا فليس ثمة ذات تشبه ذاته تعالىٰ، إذ لا تقبل ذاته الانقسام لا فعلًا ولا وهمًا ولا فَرَضًا مطابقًا للواقع، ولا تشبه صفاته الصفات، ولا تعدد فيها من جنس واحد بأن يكون له تعالىٰ قدرتان أو علمان مثلًا، ولا يدخل في أفعاله الاشتراك، إذ لا فعل لغيره سبحانه خلقًا أو إيجادًا، وإن نسب إلىٰ غيره كسبًا واكتسابًا)[1].

ومنها أيضًا: (التوحيد إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطلة عن الصفات)[2]، ومنها أيضًا: (بأنه علم يقتدر به علىٰ إثبات العقائد الدينية من

---

(1) شرح جوهرة التوحيد (ص20) .
(2) شرح جوهرة التوحيد (ص21) .

آدلتها اليقينية، وموضوعه ذات الله تعالىٰ من حيث ما يجب له وما يستحيل عليه وما يجوز في حقه، وذات الرسل كذلك، والممكنات من حيث أنه يتوصل بها إلىٰ صانعها، والسمعيات من حيث اعتقادها، وثمرته معرفة الله بالبراهين القطعية والفوز بالسعادة الأبدية، وفضله أنه أشرف العلوم لكونه متعلقًا بذات الله وذوات رسله، فهو أصل لما سواه، وسمي علم التوحيد لأن مبحث التوحيد أشهر مباحثه، ويسمىٰ علم الكلام أيضًا، واستمد من الأدلة العقلية والنقلية، وأما حكم الشارع فيه فالوجوب العيني علىٰ كل مكلف من ذكر أو اثنىٰ، وأما مسائله فهي قضاياه الباحثة عن الواجبات والجائزات والمستحيلات)[1].

نلاحظ أن جميع التعريفات تدور حول مشكلة الصفات التي أثارها المعتزلة، وهي تظهر مدىٰ الإجحاف الذي لحق بمضمون (العقيدة) من جهة, ومدىٰ سيطرة التاريخ علىٰ مؤلفي العصور المتأخرة من جهة ثانية، ويبلغ الإجحاف ذورته عندما يربط الشارح بين علم بشري هو (علم الكلام) وكلام إلهي هو (علم التوحيد) ربطًا محكمًا، ويعتبر أحدهما صنو الآخر، ليقرر في النهاية الوجوب العيني علىٰ كل مسلم أن يعرف هذه الأمور (الكلامية) التي ما أنزل الله بها من سلطان!!

معرفة العقيدة:

تقلص مفهوم العقيدة ليصبح عند الشارح (وجود الله وصفاته) وتقلص التعامل معها ليصبح (معرفة الدليل)، ويمثل الشارح لأمور العقيدة التي يجب معرفة دليلها بالسؤال التالي: (ما الدليل علىٰ وجود الله تعالىٰ؟)، ويكمل الشارح فيقول: متعجبًا: (فقلت هذا العالم، فإن لم تعرف جهة الدلالة فيه معرفة مصحوبة بذكرها علىٰ الوجه المعتبر عند المناطقة فهو دليل جملي، وكذلك إذا عرفت جهة الدلالة معرفة مصحوبة بتقريرها علىٰ الوجه المعتبر وقدرت علىٰ حل الشبهة فهو دليل تفصيلي)[2].

ويقتضي الحديث عن الدليل التفصيلي أن يتكلم عن العدم والوجود وأقسام الحكم العقلي الواجب والجائز والمستحيل، وينتهي من كل ذلك أن الله واجب الوجود.

(1) شرح جوهرة التوحيد (ص21) .
(2) شرح جوهرة التوحيد (ص32) .

يقدم بكل هذه المقدمات الفلسفية ليدلل علىٰ قضية اعتبرها القرآن الكريم قضية فطرية[1] كما وضحنا ذلك عند دراستنا لشرح العقائد النسفية.

وهذه المقدمات الفلسفية توضح لنا مدىٰ الخلل الذي حبلت به هذه المؤلفات، ومدىٰ ابتعادها عن الدليل القرآني، واعتمادها علىٰ الأدلة الفلسفية بشكل عام، والخلل الأكثر أهمية هو اعتبار الشارح أن من لا يعرف (العقيدة) بهذا الركام من المقدمات والدلائل الفسلفية مؤمنًا عاصيًا[2] إن قدر علىٰ النظر، وكافرًا في رأي آخر ينقل عن السنوسي.

التكليف:

يتعرض الشارح لقضية التكليف[3] ويحددها بأنها معرفة الله تعالىٰ، ويوضح أن طريقها الشرع وليس العقل كما ذكرت المعتزلة، ويرد علىٰ رأي المعتزلة القائل بالتحسين والتقبيح العقليين، ويذكر أن ما وجب لله عشرون صفة، ويتحدث عن الأدلة المتعلقة بها، فيذكر أنها علىٰ ثلاثة أنواع: عقلي وسمعي ومختلف فيه، ثم يتحدث عن الأحكام المطلقة فيذكر أنها ثلاثة: شرعية وعقلية وعادية ويفصل كل نوع.

فالحكم الشرعي: هو كلام الله تعالىٰ المتعلق بأفعال المكلفين بالطلب أو الإباحة أو الوضع لهما.

الحكم العادي: هو إثبات الربط بين أمر وآخر وجودًا أو عدمًا بواسطة تكرر القرِان بينهما علىٰ الحس، وعدم تأثير أحدهما في الآخر البتة.

الحكم العقلي: ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام واجب وجائز ومستحيل.

ثم ينقل الشارح قول إمام الحرمين الجويني: إن معرفة هذه الأحكام هو العقل، لذلك يوصي المسلم الاعتناء بهذه الأحكام.

نلحظ اعتبار الشارح أن الواجب أن يعرف المكلف عشرين صفة لله تعالىٰ بأدلتها العقلية والنقلية، وإنه لأمر عجيب أن يختزل الدين حتىٰ تصبح أهم أموره أن يعرف المسلم فقط عشرين صفة لله تعالىٰ بأدلتها.

ليس من شك بأن الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أَجَلّ وأكبر من أن ينحصر في معرفة عقلية باردة.

إن دين محمد صلى الله عليه وسلم لا يقوم علىٰ أن يعرف المسلم ربه

---

(1) انظر (ص58) من هذا الكتاب .
(2) المرجع السابق نفسه (ص37).
(3) المرجع السابق نفسه (ص43).

فقط فهذا أمر فطري، لكن يقوم علىٰ أن يؤله المسلم ربه وحده، ويتجه إليه وحده في تعظيمه وخضوعه وخوفه ورجائه وحبه وثقته، وهذا يحتاج إلىٰ مجاهدة المسلم لأهوائه لا أن يعرف أقسام الحكم العقلي.

الإيمان:

عرّف الشارح الإيمان بأنه التصديق[1]، ورجّح أن العمل والنطق به شرط له وليس شطرًا منه، ورفض رأي المعتزلة الذي يعتبر العمل جزءًا من الإيمان، وقرر زيادته بالطاعات ونقصانه بالمعاصي.

أصاب الشارح في بعض أقواله السابقة وأخطأ في بعضها، فقد أصاب في تقريره زيادة الإيمان ونقصانه، وأخطأ في تعريفه الإيمان بأنه هو التصديق، وقد وقع الباجوري في الخطأ الذي وقع فيه التفتازاني، وسنرىٰ تفصيل الرد عليهما بعد قليل في فقرة الملاحظات علىٰ كتب العقائد [2].

صفات الله تعالىٰ:

يتحدث الشارح عن صفات الله تعالىٰ فيذكر أنها تنقسم إلىٰ قسمين[3]: ثبوتية، وسلبية؛ فالثبوتية منها ما يدل على نفس الذات وهي الوجود، ومنها ما يدل علىٰ معنىٰ زائد علىٰ الذات وهي صفات المعاني والمعنوية، وكلاهما أربعة عشرة هي: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام؛ وكونه تعالىٰ: قديرًا، مريدًا، عليمًا، حيًا، بصيرًا، سميعًا، متكلمًا، والسلبية خمس صفات هي: القدم، والبقاء، والقيام بالنفس، والمخالفة للحوادث، والوحدانية.

ثم يدلل علىٰ واجب الوجود ببطلان التسلسل والدور، ثم يفصّل الحديث عن الصفات السلبية فيذكر المخالفة للحوادث التي يلحقها القدم، ويذكر قيامه بالنفس، والمقصود: عدم افتقاره تعالىٰ إلىٰ المحل والمخصص، ويذكر الوحدانية التي تعني: وحدانية الذات، والصفات والأفعال.

ثم ينتقل إلىٰ صفات المعاني فيذكر صفة القدرة، ويشير إلىٰ تعلقاتها

---

(1) شرح الجوهرة (ص67).
(2) انظر هذا الكتاب (ص).
(3) شرح جوهرة التوحيد (ص85) وما بعدها.

السبعة، ويتحدث عن صفة الإرداة، ويذكر أن لها تعلقًا صلوحيًا[1] وتنجيزيًا[2] قديمين، ويؤكد أن الإرادة غير الرضا.

ويتحدث الشارح عن صفة العلم فيوجبها له تعالىٰ وتعلق العلم تنجيزي قديم، وينفي عن الله اكتسابه له.

ثم يقرر صفتي الحياة والكلام لله تعالىٰ، ودليل ذلك النقل، وخالف المعتزلة ذلك فقالوا: معنىٰ كونه متكلم عندهم أي: خالق للكلام في بعض الأجسام، وذلك لزعمهم أن الكلام لايكون إلا بحرف وصوت.

ويتبع ذلك بالكلام علىٰ صفتي السمع والبصر، ويقرر أن السمع هو دليل هذه الصفات، ويذكر أن السمع والبصر تعلقات ثلاثة:

أولها: صلوحي قديم.

ثانيها: تنجيزي قديم.

ثالثها: تنجيزي حادث.

ثم يتعرض لصفة الإدراك فيذكر إقرار بعضهم لها، وإنكار آخرين، وتوقف فئة ثالثة في شأنها.

ثم ينتقل إلىٰ الحديث عن الصفات المعنوية وهي: حيٌّ، عليم، قادر، مريد، سميع، بصير، متكلم؛ ويوضح الفرق بين صفات المعاني والمعنوية.

إن المعاني صفات وجودية، والمعنوية ثبوتية، بمعنىٰ أنها عبارة عن قيام المعاني بالذات، وأن المعاني ملزومة للمعنوية عقلًا، والمعنوية لازمة للمعاني بمعنىٰ أنه يلزم من كونه قادرًا أنه موصوف بالقدرة.

ثم يتحدث عن علاقة الصفات بالذات فيقرر أنها ليست بعين الذات ولا غيرها.

قصدت نقل الكلام السابق بطوله ليبصر القارئ بنفسه مدى التطور الفلسفي الذي لحق الحديث عن الصفات في الدليل والمضمون من جهة، ومدىٰ تعقيد المصطلحات المرادفة من جهة ثانية، واستمرار خلط الحديث العقلي بالسمعي من جهة ثالثة.

تأويل الصفات:

---

(1) التعلق الصلوحي القديم يقصد به: صلاحيتها في الأزل للإيجاد والإعدام.
(2) التعلق التنجيزي: هو الإيجاد أو الإعدام بالفعل.

يرىٰ الشارح أن النصوص تقسم إلىٰ قسمين: محكم ومتشابه[1]، وأن الموقف من المتشابه: إما التفويض[2] كما فعل السلف، وإما التأويل[3] كما فعل الخلف، وينصح المسلم أن يؤول أو يفوض في كل نص متشابه، ويورد بعض الآيات التي يراها من المتشابه، وتحتاج إلىٰ تأويل وهي:

1. (الرحمن علىٰ العرش استوىٰ) يؤول الاستواء بالقدرة والاستيلاء.
2. (وهو القاهر فوق عباده) ويؤول الفوقية بالرتبة.
3. (وجاء ربك والملك صفًا صفًا) يؤول المجيء بمجيء أمر الله.
4. (ينزل ربنا كل ليلة إلىٰ السماء الدنيا حين يبقىٰ ثلث الليل الأخير) يؤول النزول بنزول رحمته تعالىٰ.
5. (ولتصنع علىٰ عيني) يؤول العين بالتربية والرعاية الخ...

ينسب الشارح التفويض إلىٰ السلف والتأويل إلىٰ الخلف.

ولكن كيف يمكن أن نقبل أن السلف –وهم خير من فقه القرآن وعمل به- يرددون ألفاظًا لا يعرفون معناها، وهم الذين سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن كل شيء: الأهلة، والمحيض، والشهر الحرام؟؟!! وعلىٰ العكس فإن كل الروايات التي وردتنا تشير إلىٰ أنهم عرفوا مدلول هذه الألفاظ لكنهم توقفوا في كيفيتها مع تنزيه الله تعالىٰ عن أي مثيل أو شبيه، وأبرز ما يمكن أن ننقله عنهم جواب مالك بن أنس رضي الله عنه عندما سئل عن الاستواء فقال: الاستواء معلوم والكيف مجهول.

إن دعوة الشارح والراجز أن يأخذ المسلم بأحد الرأيين:

التفويض أو التأويل، ابتعاد عن الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعلّمه صحابته، وهو تطور لم نعهده عند التفتازاني في (شرح العقائد النسفية) ولا عند أبي الحسن الأشعري في كتبه جميعها، وهو التقاء بمذهب المعتزلة الذي أنبرىٰ أسلاف الباجوري لمحاربته، وقام وجودهم علىٰ مخالفته، وإذا بهم بعد فترة من الزمن يأخذون بتأويلاته، وهو ما يثير العجب عند الدارس.

---

(1) شرح جوهرة التوحيد (ص149).
(2) التفويض هو صرف اللفظ عن ظاهرة مع عدم التعرض لبيان المعنىٰ المراد منه.
(3) التأويل هو حمل اللفظ علىٰ خلاف ظاهرة مع بيان المعنىٰ المراد منه.

ما يستحيل في حق الله تعالىٰ:

يقرر الشارح استحالة الصفات التالية في حق الله تعالىٰ وهي: العدم، والحدوث، والمماثلة للحوادث، وعدم القيام بالنفس إلخ...

كما يعود ثانية إلىٰ نفي الجهة في حقه تعالىٰ، وتأويل الآيات الواردة فيها كما في قوله تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾[1]، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾[2]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ﴾[3]، ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾[4]، ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾[5]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ﴾[6]، ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾[7]..... إلخ.

يعتبر الشارح النصوص السابقة من المتشابه لذلك ينصح بتأويلها، نلحظ فيما سبق أمرين:

الأول: ما يزال النهج الفلسفي هو الذي يتحكم في نظرة الشارح إلىٰ صفات الله تعالىٰ، مع أنه يفترض أن يحكمه النهج القرآني في الألفاظ الواجب إطلاقها، وفي المجالات التي يمكن الخوض فيها.

الثاني: اعتبر الشارح الآيات السابقة من المتشابه وأوجب تأويلها انطلاقًا من الاعتبار السابق، فهل المتشابه هو الذي يختلف الناس في تفسيره؟ أم المتشابه ما خفي معناه وأشكل من جهة ويمكن لأولىٰ العلم أن يصلوا إلىٰ تحديد المعنىٰ المطلوب منه من جهة ثانية؟

ما يجب علىٰ الله تعالىٰ:

ينقل الشارح رأي المعتزلة في وجوب فعل الأصلح[8] علىٰ الله تعالىٰ، وامتناع إرادة الشرور والقبائح منه تعالىٰ، ويرد علىٰ ذلك بمثال إيلامه

---

(1) الملك، آية رقم 16.
(2) النساء، آية رقم 158.
(3) الزخرف، آية رقم 84.
(4) ق، آية رقم 16.
(5) الحديد، آية رقم 4.
(6) البقرة، آية رقم 186.
(7) البقرة، آية رقم 115.
(8) شرح جوهرة التوحيد (ص230).

الأطفال لإبطال رأيهم الأول، وبأنه لا يقبح منه تعالىٰ فعل لإبطال رأيهم الثاني.

ليس الخطأ عند المعتزلة في آرائهم التي طرحوها فقط، لكنه يتعدىٰ ذلك إلىٰ موقفهم من ذات الله تعالىٰ، وقلة أدبهم معه عز وجل كما نوّهنا بذلك عند حديثنا عن شرح العقائد النسفية، فهم يوجبون عليه تعالىٰ، ويمنعون عنه، ويريدون له تعالىٰ، وهذا يحتاج إلىٰ تحديد مع المعتزلة.

فهل نحاكم نحن البشر الضعاف ذات الله تعالىٰ؟ فنوجب عليه تعالىٰ، ونريد له تعالىٰ بعقولنا القاصرة؟ أم نوجب له تعالىٰ ما أوجبه علىٰ نفسه، ونريد له ما أراده الله تعالىٰ لذاته علىٰ لسان رسله وعن طريق كتبه؟ ما أظن مؤمنًا يتوقف لحظة واحدة عن التسليم بإيجاب ما أوجبه تعالىٰ علىٰ نفسه، لأنه مقتضىٰ العقل السليم، ومطلب الإيمان الحقيقي.

تجويز رؤيته تعالىٰ:

يقرر الشارح جواز رؤيته تعالىٰ[1] يوم القيامة، ويحشد الأدلة التي تدعم رأيه ويبدؤها بسؤال هو: هل يجوّز العقل والسمع الرؤية؟ ثم يعرض دلائل المعتزلة التي تمنعها، ويرد عليها دليلًا دليلًا، وهو في كل ما ذكره لم يأت بشيء جديد، إنما كرر ما ذكرته كتب (العقائد) السابقة.

الرسل:

يبين الشارح أن إرسال الرسل فضل من الله تعالىٰ، وليس واجبًا كما ذكرت المعتزلة والفلاسفة، وليس مستحيلًا كما ذهب السمنية والبراهمة، ثم يذكر الصفات التي تجب لهم: كالأمانة، والصدق، والفطانة، والتبليغ؛ ويقرر عدم اكتساب النبوة، وأفضلية محمد صلى الله عليه وسلم علىٰ جميع الأنبياء، ويوضح تأييد الله تعالىٰ الأنبياء بالمعجزات، ويستعرض معجزات محمد صلى الله عليه وسلم في النهاية.

(1) شرح جوهرة التوحيد(ص246).

أحكام متفرقة:

يتحدث الشارح عن فضل الصحابة عامة ويبين أفضليتهم حسب تسلسل خلافتهم، ويقرر وجوب التقليد المذهبي، ثم يدعو إلىٰ إثبات الكرامة للأولياء، ثم يتحدث عن الروح، والعقل، والموت، وعذاب القبر، وعلامات الساعة، والصراط، والكرسي، والقلم، والحوض، والشفاعة.

هذه الأحكام ليست من صلب الدين حتىٰ يخص بالذكر كل قضية منها، وكان يمكن أن يكتفي بتحديد المنهج العام الذي يؤدي إلىٰ الحكم علىٰ هذه القضايا مثل: الأخذ بحديث الآحاد في مجال العقائد أو عدمه.

بعض الملاحظات علىٰ كتب العقائد

وبعد أن درسنا بعض مؤلفات (الأشعري، التفتازاني، الباجوري) يمكن أن نرصد خط التطور في بعض المسائل، ويمكن أن ندوّن الملاحظات المشتركة التالية عليها:

1. مصطلح العقيدة:

أصبحت كلمة (العقيدة) علمًا علىٰ أمور مهمة في الدين، وشطر عظيم منه، وأضحىٰ المسلم حريصاً علىٰ سلامتها حتىٰ يضمن –كما يظن- سعادة الدنيا والفوز بالآخرة، وصارت حيثيات العقيدة بالصورة التي انتهت إليها كتب (العقائد) ميزانًا يوزن الأشخاص والجماعات.

وإن مما يستغربه الدارس أن يكون مصطلح (العقيدة) قد أخذ مكانة عالية مع أنه لم يرد في قرآن ولا سنة، ولم يرد علىٰ أفواه العلماء الأجلاء من أمتنا في القرون الأولىٰ الخيرية أمثال: أبي حنيفة، والشافعي، ومالك، وأحمد بن حنبل وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين؛ وإنما عرفوا مصطلحات أخرىٰ مثل مصطلح (الفقه الأكبر)[1]، و(أصل الدين)[2]، وقد تكون هذه المصطلحات أكثر إيحاءً وأقرب دلالة إلىٰ روح الشرع الإسلامي من المصطلح السابق (العقيدة) ومع ذلك فإنه شاع بين المسلمين وترسخ علىٰ مدار العصور واستمر نافذًا إلىٰ العصور الحديثة.

فما المدلول الذي يشير إليه مصطلح (العقيدة) عندما يسمعه المسلم؟ يشير إلىٰ ما يجب أن يعتقده المسلم في أهم أمور الدين، والاعتقاد هنا عملية عقلية سواء في مضمونها أم في دلائلها[3].

لا شك أن اعتبار الاعتقاد العقلي هو الجانب الأهم من الدين اعتبار خاطئ، لما فيه إغفالًا لجانبين آخرين مهمين هما: الجانب المعنوي والسلوكي، المعنوي الذي يعالج الخوف والرجاء والحب والتعظيم إلخ، والسلوكي الذي يعالج الطاعة والمعصية والحلال والحرام والشبهات إلخ...

---

(1) نقل عن أبي حنيفة رضي الله عنه.
(2) نقل عن أبي الحسن الأشعري رحمه الله.
(3) مما يجدر الانتباه له أن الجذر اللغوي لكلمة (عقد) ربما يعطي معاني أخرىٰ مثل: ربط العقل والقلب علىٰ أمور، لكن الذي يهمنا هو المعنىٰ الذي انتهىٰ إليه هذا اللفظ، والمدلول الذي يشير إليه في نهاية تطوره التاريخي.

ويمكن أن نقرر دون مبالغة رجحان الجانب النفسي علىٰ الجانب العقلي في ديننا من خلال آيات القرآن الكريم ومن خلال مطالعة النفس البشرية، ولا يوجد أصلًا اعتقاد عقلي مجرد إلّا علىٰ صفحات الورق، بل يتأثر الاعتقاد العقلي بالجانب النفسي قبله وأثناءه وبعده.

2. تضخيم دور العقل:

تتسم كتب (العقيدة) عمومًا بانها تضخم دور العقل وتقحمه في مجالات لم يتهيأ لها وليست من مجال بحثه، وأبرز دلائل التضخم: أنها تعتبر أول واجب علىٰ المسلم هو النظر، وأنها امتلأت بالمقدمات والأحكام العقليين مثل: ما يوجبه العقل وما يجيزه وما يستحيل عليه، وأنها اعتمدت البراهين المنطقية والفلسفية مثل: الدور والتسلسل والتطبيق، وأنها أقحمته في مجالات ليست من اختصاصه مثل: البحث في صفات الله تعالىٰ هل هي عين الذات أم غيرها؟وهل يعلم الله علمًا كليًا أو جزئيًا؟

وأنها استعانت للتدليل علىٰ وجهات نظرها بعلوم الكلام والمنطق والفلسفة، وأنها اعتبرت الدليل النقلي ظنيًا في حين أنها اعتبرت الدليل العقلي يقينيًا الخ...

3. الصيغة الدفاعية:

تتسم الكتب التي درسناها بسمة الدفاع الدين بغض النظر عن مضمون هذا الدفاع: صحته أو خطئه والرد علىٰ الخصوم، وتفنيد آرائهم... وقد نال المعتزلة نصيبًا وافرًا من هذه الردود، ربما لأنهم أول الفئات التي أجترأت علىٰ الدين وابتدعت فيه.

وإن اقتصار كتب (العقائد) علىٰ الردود والدفاع جعل بعض المسلمين المتأخرين يخطئون في تحديد أصول الدين، ويظنون أن الموضوعات التي تناولها البحث والرد، هي جوهر الدين ولبه الذي يجب أن يبدأ العبد به، ويعلمه، ويقيمه في حياته، وجعلهم يغفلون عن الوجه الإيجابي للدين المبثوث في ثنايا القرآن الذي يعتبر إقامة معاني التأليه في قلب العبد أصل الدين وجوهره ولبه المطلوب ليسعد في الدنيا وينجو في الآخرة.

4. الاستدلال بالعلوم الأخرىٰ ومراحل ذلك:

القرآن كتاب الله الكامل الذي يدلل خير الدليل علىٰ الحقائق التي ينشدها، وقد أدرك السلف الصالح ذلك، فاستغنوا بأدلته عن أيّة أدلة، وهو ما يفسر موقفهم الصلب المتشدد من بواكير علم الكلام[1]، وقد شرحه أبو

---

(1) انظر ما نقلناه عن الأئمة الأربعة: الشافعي، أحمد بن حنبل، مالك بن انس، أبي حنيفة، في

الحسن الأشعري عندما رغّب أهل السنة في الاستفادة من علم الكلام لتدليل علىٰ الحقائق القرآنية، واعتبره علمًا محايدًا يمكن أن نستفيد منه في مواجهة خصومنا بدل أن نجعلهم يتفردون في استخدامه، وقد استفحل الشر بعد الشرخ الذي أحدثه الأشعري حيث أصبح علم الكلام أداة أساسية لإثبات عقائد أهل السنة، ثم دخل علم آخر إلىٰ كتب العقائد في مرحلة تالية هو علم المنطق، ثم دخل علم ثالث بعد ذلك هو علم الفلسفة وتداخلت موضوعاته مع الموضوعات الدينية.

وأصبحت ترىٰ في كتب العقائد عند المتأخرين خليطًا عجيبًا من علم الكلام والمنطق والفلسفة متداخلة مع بعض الحقائق الدينية في الدليل والمضمون، وقد انتبه إلىٰ ذلك بعض النقاد ومن ضمنهم ابن خلدون فميّز في مقدمته ثلاث مراحل مرّت بها كتب العقائد وأشار إلىٰ ذلك فيها.

وقد أفرز هذا الاختلاط أحكامًا في منتهىٰ العجب، منها:

1. إطلاق اسم علىٰ الكلام علىٰ علم التوحيد.
2. إيجابهم علىٰ المكلّف أن يعرف بعض أصول علم الكلام، أو المنطق، أو الفلسفة، أو جميعها التي يبنون عليها أدلتهم، فمثلًا من المقدمات العقلية التي أوجبوها في مرحلة من المراحل: إثبات الجوهر الفرد، الخلاء، وأن العرض لا يقوم بالعرض، وأنه لا يبقىٰ زمانين... إلخ...، وجعلوا هذه القواعد تبعًا للعقائد في وجوب الإيمان بها، وأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول، ومنها أيضًا الوجود والعدم، وأقسام الحكم العقلي الواجب والجائز والمستحيل... الخ.

وقد نسي الذين أخذوا بهذه المقدمات العقلية للتدليل علىٰ بعض الحقائق القرآنية، أن طبيعة الدليل القرآني تختلف عن كل الأدلة السابقة ومن هذه الاختلافات أنه يقوم علىٰ مخاطبة الكيان الإنساني جميعه: عقلًا وحسًا وعاطفةً، في حين أن الأدلة الأخرىٰ جميعها تقوم علىٰ مخاطبة العقل وحده.

5. موضوعات كتب العقائد:

إن أبرز موضوعين انشغلت بهما كتب (العقائد) هما: وجود الله وصفاته، ونحن قبل أن نحكم علىٰ قيمة انشغالها بهما: صوابه أو خطئه،

الصفحات (20-21).

قربه من الحق أو بعده، سنرصد خط تطورها أولًا.

أ) وجود الله تعالىٰ:

أثار الأشعري مشكلة وجود الله تعالىٰ في كتاب (اللمع في الرد علىٰ أهل الزيغ والبدع)، وقد زاوج في تدليله بين الأدلة العقلية وبعض الآيات القرآنية التي أشارت إلىٰ مظاهر الكون.

ثم تحدث التفتازاني وأثار المشكلة نفسها وقدم لذلك بالحديث عن أسباب العلم والعرض والجوهر والأجزاء التي لا تتجزأ والجسم... إلخ... قدّم بكل ذلك ليثبت أن العالم حادث لابدّ له من محدث وهو الله تعالىٰ، ثم تعرض لبعض الأدلة المشهورة لتدعيم وجهة نظره وهي دليل الدور والتسلسل وبرهان التطبيق.

وقد تحدث الباجوري كذلك عن وجود الله تعالىٰ ولكن أورد مقدمات أخرىٰ بالإضافة إلىٰ مقدمات التفتازاني وهي: الوجود والعدم، والحكم العقلي بتقسيماته الثلاثة: الواجب والجائز والمستحيل، وتعرض لأدلة الدور والتسلسل والتطبيق، ليصل إلىٰ أن الله واجب الوجود.

إذن نلحظ أن قضية وجود الله تعرضت لها كتب المؤلفين الثلاثة، وقد كان واضحًا أن الأشعري تحدث حديثًا عقليًا ونقليًا بسيطًا في حين أن التفتازاني والباجوري كان حديثهما أكثر تعقيدًا واستعانة بأدلة العلوم الأخرىٰ ومقدماتها.

والآن: هل تشكل قضية وجود الله إحدىٰ مشاكل الإنسان فعلًا؟؟

وما الذي قاله القرآن في هذا الصدد؟؟

لم يتعرض القرآن لقضية وجود الله، واعتبرها قضية فطرية، مهما تعنّت الإنسان في أنكارها وحال الكِبْر دون الإقرار بها، فلا بد أن تتغلب فطرته وتظهر حقيقتها في المواقف الصعبة القاسية التي يتعرىٰ الإنسان فيها من كل زيف ويصرخ فيها: يا رب عونك، نجدتك، لطفك، إلخ... وقد أشارت الآيات إلىٰ ذلك في أكثر من سورة: (قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ)[1]، (وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا

---

(1) الأنعام:[63-64].

أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ)[1].

(قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ)[2]، (هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)[3].

وقد أبرزت آية الأعراف فطرية الإقرار بوجود الله بصورة فريدة إذ بينت أن الله قد أخذ العهد بهذا علىٰ الإنسان وهو في عالم الذر قبل أن يخلق، قال تعالىٰ: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ)[4].

وقد استغرب الأنبياء في حديثهم مع أممهم أن يتطرق الشك إليهم في وجود الله تعالىٰ: (أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ)[5].

وقد حدثنا القرآن عن أنبياء كثيرين دعوا أقوامهم، ونقل لنا طرفًا من الحوار الذي جرىٰ بينهم، فلم تسأل أيّة أمة نبيها: هل الله موجود أم لا؟ إنما حاورته في أمور أخرىٰ كثيرة سوىٰ هذه القضية.

(1) يونس: [12].
(2) الأنعام: [40-41].
(3) يونس: [22-23].
(4) الأعراف: [172].
(5) إبراهيم: [10].

إذن لم يكن الحديث الذي حبرت به كتب العقائد صفحاتها، لم يكن انعكاسًا لقضية فطرية أو قرآنية، إنما كان انعكاسًا لكتب الفلسفة.

ب) الصفات:

ترتبط مشكلة الصفات عند المعتزلة بالتعطيل الذي أثاره جهم بن صفوان (128هـ) في مرحلة مبكرة من التاريخ الإسلامي، ويرجع ابن تيمية أصل مقاله الجهمية إلىٰ عناصر دخيلة علىٰ الإسلام، لأن جهم بن صفوان أخذ مقالته عن جعد بن درهم، وقيل إن جعد بن درهم أخذ مقاله التعطيل عن أبان بن سمعان،الذي أخذها عن طالوت، وأخذها طالوت عن خاله لبيد بن أعصم اليهودي.

وقد تصدىٰ رهط كبير من العلماء للرد علىٰ الشبهات المثارة حول قضية الصفات علىٰ مدار القرون الثلاثة: الثاني والثالث والرابع وهم: أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي (61هـ) وأبو سعيد يحيىٰ بن سعيد بن فروخ التميمي القطان البصري المحدث الحجة الناقد (198هـ)، وابن أبي شيبة أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان العبسي (225هـ)، وألف في ذلك كتاب السنة، ويحيىٰ بن بني يحيىٰ بكير بن عبد الرحمن بن يحيىٰ الحنطي الحافظ (226هـ)، وأبو عبد الله نعيم بن حماد المروزي (228هـ)، وعبد الله بن محمد بن عبد الله الجعفي شيخ البخاري (229هـ) الذي ألف كتاب (الرد علىٰ الجهمية)، والإمام أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم المعروف بابن راهوية شيخ البخاري أيضًا (228هـ)، وألف الإمام أحمد بن حنبل (241هـ) كتاب (الرد علىٰ الجهمية والزنادقة)، وصنف الإمام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (256هـ) كتاب (خلق أفعال العباد) و(الرد علىٰ الجهمية)، وألف أبو بكر أحمد بن محمد بن هانيء الأثدم البغدادي تلميذ الإمام أحمد بن حنبل (273هـ) (كتاب السنة)، وصنف أبو علي حنبل بن إسحاق بن هلال تلميذ الإمام أحمد بن حنبل أيضًا (273هـ) (كتاب السنة).

وكتب أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (275هـ) كتاب (السنة)، وكذلك فعل أبو بكر أحمد بن عمرو بن النبل الشيباني البصري (277هـ) فألف كتاب (السنة)، وصنف عثمان بن سعيد الدارمي تلميذ يحيىٰ بن معين (280هـ) كتاب (الرد علىٰ الجهمية) وكتاب (الرد علىٰ بشر المريسي)، وأبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل (290هـ)، وصنف

أبو بكر أحمد بن علىٰ بن سعيد المروزي (292هـ)، (كتاب السنة)، وألف أيضًا أبو عبد الله محمد بن يحيىٰ بن منده العبدي (301هـ) (كتاب التوحيد)، وتكلم في ذلك أبو العباس بن سريج (306هـ)، وصنف أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال مرتب آثار الإمام أحمد بن حنبل (311هـ) (كتاب السنة)، وألف أبو بكر محمد بن إسحاق ابن خزيمة (311هـ) (كتاب التوحيد).

وكتب أبو أحمد محمد بن أحمد بن إبراهيم الأصبهاني العسال (349هـ) (كتاب السنة)، وألف أيضًا أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (360هـ) (كتاب السنة)، وكذلك أيضًا أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان (369هـ) فإنه كتب (كتاب السنة)، وألف عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري (387) (كتاب الإبانة)، وصنف أبو القاسم هبة الله بن الحسن الرازي اللالكائي (418هـ) (كتاب السنن)، وكتب في ذلك من المغاربة أبو عمر وأحمد بن محمد بن عبد الله الطلمنكي الأندلسي (429هـ) (كتاب الأصول)، وصنف أيضًا في ذلك أبو ذر عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الأنصاري الهروي (434هـ) (كتاب السنة)، وألف أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي (458هـ) كتاب (الأسماء والصفات)، وتكلم في ذلك في عدة كتب حافظ المغرب بلا منازع أبو عمرو ويوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي (463هـ) وغير هؤلاء كثير[1].

وقد أكدوا جميعًا المنهج الذي يجب أن نتبعه إزاء الصفات وهو ضرورة اعتماد النصوص القرآنية والحديثية فيما يتعلق بها، والتسليم لله تعالىٰ بما وصف ذاته وأخبر عنها، مع تنزيهه تعالىٰ عن أي مثيل وشبيه، وعدم الجنوح إلىٰ التأويل بحال من الأحوال.

وقد لاحظنا عند استعراضنا لما كتب الأشعري أنها استغرقت معظم حديثه في الكتابين، وقد توسع في الحديث عن صفة كلام الله لأن لها ارتباطًا بمسألة خلق القرآن التي كان الخلاف حولها تعبيرًا عن الموقف من قضية الصفات.

وقد تميزت كتابة الأشعري حول موضوع الصفات وآراؤه بأنها اعتمدت آراء وأقوال أحمد بن حنبل، فأقر بالصفات الخبرية، ورفض

(1) تشير هذه الردود الكثيرة إلىٰ حيوية أمتنا، وتصديها المباشر للأخطاء والتفافها حول مصادر الوحي الإلهي.

التأويل، وأقرّ أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وزواج في حديثه بين الأدلة العقلية والنقلية ودعا إلىٰ اعتماد علم الكلام للمنافحة عن (العقيدة الإسلامية).

وقد اتسم حديث التفتازاني عن الصفات بالجنوح العقلي أكثر من السابق، وإلىٰ نفي بعض الصفات عن الله تعالىٰ، وبالحديث عن سبع صفات لله تعالىٰ، وبالحديث التفصيلي عن صفة الكلام والرد علىٰ المعتزلة وتقرير أن القرآن كلام الله تعالىٰ، وأن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها.

وكانت ذروة التطور في الحديث عن الصفات عند الباجوري من ناحية التعقيد ومن ناحية البعد عن الصواب، حيث أصبحت تقسم إلىٰ ثبوتية وسلبية، والثبوتية تقسم إلىٰ قسمين: صفات معاني ومعنوية، ويذكر أن بعض الصفات لها تعلق صلوحي وتنجيزي، وربما كان المنعطف الجديد في قضية الصفات هو إقراره التأويل ودفاعه عنه، وقد بدأ هذا المنعطف في عصور سابقة، منذ زمن أبي حامد الغزالي، ولا شك أن التأويل التقاء بالمعتزلة، وقبول لما رفضه السلف الصالح والأشعري ذاته مؤسس العقيدة الأشعرية.

ونطرح الآن السؤال الذي كنا طرحناه في نهاية الكلام عن وجود الله:

هل تشكل صفات الله إحدىٰ مشاكل الإنسان الفطرية فعلًا؟ ما الذي قاله القرآن الكريم في هذا الصدد؟

لا تشكل قضية صفات الله إحدىٰ مشاكل الإنسان بدليل أن المشركين أقروا بها، واعترفوا بالكثير منها، ويتضح ذلك في قول الله تعالىٰ:

(قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ)[1].

(قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ)[2].

---

(1) المؤمنون: [84-89].
(2) يونس:[31].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[1].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[2].

إن الآيات السابقة تشير إلىٰ أن المشركين أقروا أن الله: عزيز، عليم، مالك، رب العرش العظيم، خالق السماوات والأبصار، يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، مدبر لأمر الكون، مسخر الشمس والقمر الخ...، وهذا أمر طبيعي لأن التصور الفطري للإله: أنه قادر عليم، يضر وينفع، قوي، يسمع، ويرزق إلخ...

وربما كانت قضية الصفات في أحد وجوهها مشكلة النفس التي تتعامل معها، فإذا كانت زائغة أو مريضة اضطربت أحكامها، وقد أشارت آيات كثيرة إلىٰ هذه النفوس، فحدثنا الله عن النفوس التي امتلأت بالكبر ومجادلتها بالباطل في آيات الله، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[3].

وحدثنا عن القلوب الزائغة إزاء المحكم والمتشابه من القرآن، وبين لنا أنها تتبع المتشابه منه، تبتغي الفتنة من ذلك، قال تعالىٰ:

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[4].

وحدثنا عن القلوب المريضة أنها ترتاب في العدد، فتراها تتساءل ماذا أراد الله بهذا مثلًا، في الوقت الذي يمكن أن يرتاب في كل شيء ما عدا الأعداد،

(1) الزخرف: [87].
(2) العنكبوت: [61].
(3) غافر: [56].
(4) آل عمران: [7].

لأن المقصود بالعدد محدد واضح ولكن تضطرب الأمور وتختل عندما تكون القلوب مريضة، قال تعالىٰ:

(وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ)[1].

إذن النفوس المتكبرة والقلوب الزائغة المريضة تشكل معها أشياء كثيرة: آيات الله، وصفاته، والمحكم والمتشابه في القرآن، والأعداد التي يذكرها القرآن ، يشكل معها كل شيء، لأنها هي في إشكال، وليس بالضرورة لأن الموضوع الخارجي مشكل.

والصحابة –في المقابل- الذين يعتبرون الذروة في الإيمان لم تشكل عليهم الصفات، ولم ينقل عنهم أنهم سألوا عن واحدة منها، وقد زادهم ذكر أعداد الملائكة التي أشكلت علىٰ الكافرين إيمانًا، وآمنوا بالمحكم والمتشابه لأنه جميعه من عند الله تعالىٰ وأعلمهم الله بعد ذلك تأويل المتشابه.

إذن تخبطت تلك النفوس المريضة في معالجة قضية الصفات، فأخضعت ذات الله وصفاته لمناهج عقلية وفلسفات بشرية، فهل وصلت إلىٰ قرار؟ لا لم تصل بل زادت المشكلة تعقيدًا كما ذكر كبار الوالجين لهذا الباب، بل وانتهوا إلىٰ حيرة أكثر من السابق:

قال الرازي في كتابه (أقسام اللذات):

نهايـــــة إقـــــدام العقـــــول عقــــال وغايـــــة ســـــعي العـــــالمين ضـــــلال

ولـــم نســـتفد مـــن بحثنـــا طـــول عمرنـــا ســـوىٰ أن جمعنـــا فيـــه قيـــل وقـــالوا

وقال أيضًا: (لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلًا ولا تروي غليلًا)[2].

وقال الشهرستاني:

---

(1) المدثر: [31].
(2) شرح العقيدة الطحاوية (ص227).

لعمري لقد طَفْتُ المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أرَ إلا واضعًا كف نادم علىٰ ذقن أو قارعًا سنة نادم[1]

وقد قال أبو المعالي الجويني:

(يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكرم، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به، وقال عند موته: لقد خضت البحر الخضم، وخيلت أهل الإسلام علومهم، ودخلت في الذي نهوني، والآن فإن لم يتداركني الله برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنذا أموت علىٰ عقيدة أمي أو قال: علىٰ عقيدة عجائز نيسابور)[2].

6. الإيمان:

عرّف أبو الحسن الأشعري الإيمان بأنه قول وعمل وأنه يزيد وينقص كما هو معروف عند أهل السنة.

لكنّ شارح النسفية اعتبر الإيمان هو التصديق، واعتبر العمل شرطًا لإجراء الأحكام الدنيوية وليس شطرًا منه وأنه لا يزيد ولا ينقص، في حين أن شارح الجوهرة التقىٰ معه في تعريف الإيمان واختلف معه في أنه يزيد وينقص.

إن تعريف الإيمان بالتصديق خطأ من عدة أوجه:

الأول: المعنى اللغوي: ففيه اقتصار علىٰ المعنىٰ اللغوي، وهذا ليس صحيحًا إذا أخرج الإسلام الألفاظ من معناها اللغوي وأعطاها المعنىٰ الشرعي الذي يريده إضافة إلىٰ أن بعض وجوه الأصل اللغوي لكلمة (الإيمان) تفيد العمل كما وضّح ابن تيمية[3] رحمه الله.

الثاني: قصر الإيمان علىٰ العقل: إن الكتّاب الذين اعتبروا الإيمان تصديقًا فقط ربطوا الإيمان بالعقل وحده فقط، في حين أن الإيمان المطلوب من العبد ليس إيمان عقله فقط، بل إيمان العبد كله: عقله ونفسه، وهذا يقتضي أن يوّجه العبد خوفه ورجاءه وحبه وتعظيمه وخضوعه إلىٰ الله تعالىٰ.

الثالث: عدم إدخال أعمال الإسلام فيه: لقد تنّبه العلماء الأخيار من

---

(1) المرجع السابق نفسه (ص228).
(2) المرجع السابق نفسه (ص228).
(3) انظر كتاب (الإيمان) لابن تيمية ففيه تفصيل الرأي القائل إن الإيمان قول وعمل، وينقل فيه رأي أحمد بن حنبل الذي فيه يكفر من يعتبر إيمان تصديقًا فقط.

أمتنا إلىٰ ترابط الإيمان والإسلام فقالوا: عندما يأتي أحد اللفظين منفردًا، فإن ذلك يعني اشتماله علىٰ معنىٰ اللفظ الآخر، أما عندما يأتيان معًا فينفرد كل لفظ بمدلولاته الخاصة، وهذا يوجب دخول العمل في معنىٰ الإيمان.

أما المقولة الأخرىٰ التي وردت في مجال الإيمان وهي أنّ الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فهي واضحة التهافت لأن الله تعالىٰ، أخبرنا في أكثر من آية من آياته بزيادته ونقصانه، قال تعالىٰ: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾[1]، وقال تعالىٰ أيضًا: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[2].

ليس من شك بأن تبنّي كتب العقائد لهذا التعريف التقاء بالمعتزلة ونصر لهم.

7. الرد علىٰ الرأيين القائلين: بوجوب فعل الأصلح علىٰ الله تعالىٰ، وبالتحسين والتقبيح العقليين:

ردت كتب العقائد علىٰ المعتزلة القائلين بوجوب فعل الأصلح علىٰ الله تعالىٰ، فأطلقت مشيئته تعالىٰ، وقد أوقعها ردها العقلي في خطأ مقابل خطأ المعتزلة، فجوّزت أفعالًا عليه تعالىٰ مثل: إثابة العاصي، وعقاب الطائع.

وردت كذلك علىٰ المعتزلة القائلين بالتحسين والتقبيح العقليين: بأن الحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع كذلك، وقد غالت في ذلك حتىٰ ألغت دور العقل، وقالت إن الشرع قد يأتي بما هو قبيح في نظر العقل مثل: إذبح الحيوان فهو إيلام له بلا ذنب وهو قبيح في نظر العقل.

وقد كان الأسلم أن نخضع ما يتعلق بذات الله أو بدور العقل إلىٰ وحي الله، ففي مجال الإيجاب والإطلاق نوجب له تعالىٰ ما أوجبه علىٰ نفسه، فنوجب له –مثلًا الرحمة لأنه أوجبها علىٰ ذاته في قوله تعالىٰ:

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ﴾[3].

وفي مجال دور العقل: نعطيه المجال الذي أعطاه الوحي له.

8. موضوعات متفرقة:

لقد امتلأت كتب (العقائد) بموضاعات مثل: عذاب القبر، والحوض، والشفاعة، والمسح علىٰ الخفين إلخ...، وقد جاء إبرازها والحديث عنها

---

(1) الفتح: [4].
(2) الأنفال: [2].
(3) الأنعام: [12].

نتيجة موقف المعتزلة أو غيرهم منها: إنكارًا أو رفضًا.
ليس من شك بأن هذه الأمور ليست أهم ما في الدين، حتىٰ تعالج في مثل هذه الكتب وحتىٰ ينص علىٰ كل قضية منها، وإن هناك خطًّا يؤلف بينها جميعًا، هو: الموقف من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان الأولىٰ معالجة هذا الأصل الذي تنسحب معالجته علىٰ كل التفريعات التي نتجت عنه.

أوضح الاستعراض السابق لنا مدىٰ ابتعاد كتب (العقائد) عن القرآن الكريم في موضوعاتها وفي طريقة استدلالها، ووضع يدنا علىٰ الجرح، ولم تجد بكل آسف أية صيحات لإيقاف هذا الابتعاد، مثل صيحات: ابن تيمية، وابن قيم الجوزية، أو أية محاولات لإعادة الأمور إلىٰ وضعها الطبيعي، إلىٰ أن أخذ الابتعاد مداه النهائي، والتدهور مداه السفلي.

والآن: ونحن في صدد الصعود مرة ثانية من أسفل المنحدر لا عذر لنا إذا لم نأخذ بالحقيقة القرآنية الكاملة التي أصعدتنا سابقًا: بحجمها، وبمسمياتها، وبتفاصيلها؛ لنرتقي القمة مرة ثانية سريعًا ومؤكدًا كما أرتقيناها في السابق؛ ولا شيء غير الحقيقة القرآنية الكاملة يمكن أن ينتج هذا أو يفعله.

إذن لنعد إلىٰ القرآن الكريم والسنة المشرفة إلىٰ الوحي الإلهي لنستخلص منه (أصل الدين) و(العقيدة).

وهذا ما سنفعله في الصفحات التالية:

العقيدة من القرآن الكريم والسنة المشرفة

الله وحده الذي خلق السماوات وزينّها بالنجوم، وهو وحده الذي خلق الأرض وأرسىٰ فيها الجبال، وهو وحده الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورًا، وهو وحده الذي خلق الليل والنهار، وهو وحده الذي خلق الإنسان فأحسن تصويره وهو وحده الذي خلق الأنعام، وهو وحده الذي خلق البحار والأنهار إلخ...

الله وحده يعلم ما في السماوات وما في الأرض، وهو وحده يعلم ما في الليل والنهار، وهو وحده يعلم ما في نفوس الناس.

الله وحده يسمع دعاء الداعين، وهو وحده يسمع سؤال المحتاجين، وهو وحده يسمع طلب المستغيثين.

الله وحده يحفظ السماوات من أن تقع علىٰ الأرض، يحفظ الماء من أن يطغىٰ مالحه علىٰ عذبه.

الله وحده يصرّف أمور الخلائق، ويعطيها كلها دون أن ينقص ذلك من ملكه شيئًا.... إلخ.

الله وحده الإله.

هذا هو أصل الدين هذه هي العقيدة كلمة: (لا إله إلا الله) هذا ما يقر به الكون، وتدين به الخلائق، ويقوم عليه أمر الكائنات، والمطلوب من العبد أن يقيم ذلك الأصل، أي أن يؤله الله وحده، ولا يؤله أحدًا غيره.

هذا هو التحدي الذي يواجهه العبد، والأفق الذي يجب أن يصبو إليه، ومشكلته علىٰ مدار الحياة.

وقد بيّن الله تعالىٰ أنه أرسل جميع الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم داعين إلىٰ هذا الأصل فقال:

(وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ)[1].

وقال تعالىٰ أيضًا:

(يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ

(1) الأنبياء: [25].

أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ)[1]، وقال تعالىٰ مخاطبًا الرسل عليهم الصلاة والسلام: (وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ)[2]، وقال تعالىٰ: (إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ)[3].

وقد بينّت آية أخرىٰ أن الله والملائكة وأصحاب العلم شهدوا لله بأنه وحده القّيوم علىٰ أمر الكون والعباد فقال تعالىٰ:

(شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ)[4]، وقد وضحت آية أخرىٰ أن الله تعالىٰ كلّم موسىٰ بهذا الأصل ودعاه إلىٰ تطبيق وجه من وجوهه وهو العبادة وإقامة الصلاة، قال تعالىٰ: (إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ)[5]، وقد جاء الحديث عن هذا الأصل علىٰ لسان جميع الأنبياء فدعا نوح عليه السلام قومه إلىٰ عبادة الله ثم ذكرهم بالأصل الذي يلزمهم بهذه العبادة وهو أنه ليس لهم من إله إلّا الله وحده، قال تعالىٰ: (لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ)[6].

ودعا هود عليه السلام قومه إلىٰ تأليه الله وعبادته وحده بالصيغة السابقة التي دعا نوح عليه السلام قومه بها، فقال تعالىٰ: (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ)[7] وقال تعالىٰ أيضًا: (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ)[8]

(1) النحل: [2].
(2) المؤمنون: [52].
(3) الأنبياء: [92].
(4) آل عمران: [18].
(5) طه: [14].
(6) الأعراف: [59].
(7) الأعراف: [65].
(8) هود: [50].

وانتهج صالح عليه السلام نهج أخويه السابقين نوح وهود عليهما السلام ودعا قومه إلىٰ الحقائق نفسها وبالألفاظ عينها قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[1].

وقال تعالىٰ أيضًا:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[2].

وسار شعيب عليه السلام مسار إخوانه الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام، ودعا قومه إلىٰ تأليه الله وحده، قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[3].

وقال تعالىٰ أيضًا: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[4].

ثم جاء محمد صلى الله عليه وسلم والتقىٰ مع الأنبياء السابقين في دعوتهم إلىٰ تأليه الله وحده لأنه يصدر معهم من مشكاة واحدة، ويبتغي معهم هدفًا واحدًا في الأرض هو إحقاق الحق في الأرض، وأبرزت الآيات الكثيرة في القرآن الكريم هذا المعنىٰ فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةًۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ قُل لَّآ أَشْهَدُۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[5].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[6]، وقد جاءت آية الكرسي التي وصفها الرسول صلى الله عليه وسلم بأنها أعظم آية في القرآن مبدوءة بتأكيد حقيقة أن الله وحده الإله، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

(1) الأعراف: [73].
(2) هود: [61].
(3) الأعراف: [85].
(4) هود: [84].
(5) الأنعام: [19].
(6) البقرة: [163].

ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾[1].

وقد بدأت سورة آل عمران أيضًا بتقرير الله وحده، قال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾[2].

وقد بين الله تعالىٰ في سورة آل عمران حقيقة عيسىٰ عليه السلام ودعا النصارىٰ إن كانوا لا يرون ذلك إلىٰ المباهلة، ثم علم المسلمين بأن الله وحده هو الإله وحصر الألوهية به عز وجل فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[3].

وقد دعا الله تعالىٰ في سورة الأنعام الناس إلىٰ عبادته بعد أن بيّن أنه وحده الإله الذي خلق كل شيء فقال- تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾[4].

وقد أمر الله تعالىٰ في آية أخرىٰ من سورة الأنعام نبيّه أن يتبع وحيه لأنه ليس هناك إله إلا الله، فقال تعالىٰ:

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[5] وقد دعا الله المسلمين أن يعلموا أن الله وحده الإله فقال –تعالىٰ: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[6].

(1) البقرة: [255].
(2) آل عمران: [1، 2].
(3) آل عمران: [62].
(4) الأنعام: [102].
(5) الأنعام: [106].
(6) هود: [14].

وقد أمر الله رسول محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يعلن بين المشركين التأليه لله، والتوكل عليه، والتوبة إليه، قال -تعالىٰ:

(كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ)[1].

وقد جاء في سورةإبراهيم دعوة للعلم بألوهية الله وحده قال تعالىٰ:
(هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ)[2].

وقد نهىٰ الله عن تأليه إلهين اثنين فالواجب تأليه الله وحده، قال تعالىٰ:
(۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ)[3]، وقد طلب الله من محمد صلى الله عليه وسلم في آخر سورة الكهف أن يعلن التأليه لله وحده فقال تعالىٰ: (قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا)[4].

وقد طلبت سورة أخرىٰ من محمد صلى الله عليه وسلم أن يعلن القول بمثل القول السابق الوارد في سورة الكهف، قال تعالىٰ:

(قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم)[5].

(فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ)[6].

(قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ)[7].

والسؤال الذي يرد الآن هو: لماذا كانت دعوة الإنسان علىٰ مدار الحياة إلىٰ تأليه الله وحده؟ ولماذا كانت البداية به؟ ولماذا كان هو الأصل؟

---

(1) الرعد: [30].
(2) إبراهيم: [52].
(3) النحل: [51].
(4) الكهف: [110].
(5) الأنبياء:[108].
(6) الحج: [34].
(7) فصلت: [6].

لأن الإنسان مفطور علىٰ أنه يؤله شيئًا ما، ويتعلق به، ويعظّمه، فهو حسب عرض القرآن في إحدىٰ حالتين لا ثالث لهما: إمّا أن يؤله الله وحده عز وجل وإما أن يؤله آلهة أخرىٰ مع الله، فالتأليه لازم لنفسه، لاصق به.

الخلاصة

إنّ الله دعا الإنسان علىٰ لسان رسله جميعًا أن يؤلهه وحده، وأن لا يؤله أحدًا غيره، لأنه يعلم تعالىٰ ما يناسب فطرته، ويسعده في الدنيا والآخرة.

ولا شك أن إقامة حقيقة التأليه في النفس هي مفتاح إقامتها في المجتمع والأرض، لذلك نحن سنركز بحثنا علىٰ حقيقة التأليه في النفس، أما حقيقتها في المجتمع فلها مجال آخر.

ونحن الآن سندرس أولًا حقيقة التأليه وجوهره الذي يجب أن يقيمه الإنسان في نفسه، ثم سندرس كيفية بنائه، ثم سندرس ثمراته.

حقيقة التأليه وجوهره

تتصف علاقة الإنسان الفطرية بالإله الذي يعبده بأنها علاقة توجه نفسي في جوهرها: يرجو ذلك الإله ويخاف غضبه، ويخضع له، ويحبه، ويثق فيه، ويؤكد ذلك الاشتقاق اللغوي لكلمة الإله التي تعني في بعض معانيها: الإجارة والشوق، والتعلق، والسكون، ويؤكده أيضًا تاريخ علاقة الشعوب بآلهتها.

وقد تعبّدنا الله تعالىٰ في دين الإسلام بشعائر كثيرة لكن جوهر عبادته تعالىٰ يبقىٰ واحدًا مهما اختلفت: من صلاة وصيام وحج إلخ...، وهذا الجوهر هو تأليهه تعالىٰ، ويشمل التأليه تعظيمه-تعالىٰ، والخضوع له، وخوفه، ورجاءه، وحبّه، والثقة فيه.

وقد أشارت الآيات القرآنية إلىٰ هذه المعاني عند الحديث عن العبادات مما يؤكد أنها اللب المقصود منها، والجوهر المستهدف فيها؛ فقد أناط الله فلاح المؤمن بالخشوع في صلاته، فقال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[1].

فمتىٰ يحدث الخشوع؟

يحدث عندما يكون هناك تعظيم له تعالىٰ، أو خوف منه، أو رجاء فيه، أو حب له، أو ثقة فيه، أو عندما تكون هذه المعاني جميعها، إذا هناك دعوة قرآنية إلىٰ هذه المعاني التي تؤدي إلىٰ الفلاح.

وقد بيّن الله تعالىٰ لنا في آية أخرىٰ الحالة التي يكون الصلاة فيها ثقيلة علىٰ العبد وذلك عندما لا يكون هناك خشوع، ولكنها تكون غير ثقيلة ومحببة إلىٰ النفس التي تؤمن بلقاء الله وحسابه وهذا اليقين يأتي عندما يكون هناك تعظيم لله وحده، أو خضوع له وحده، أو خوف منه وحده، أو رجاء فيه وحده، أو حب له أكثر من كل محبوبات الدنيا، أو ثقة فيه أكثر من كل أسباب الدنيا، قال تعالىٰ:

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم

(1) المؤمنون: [1، 2].

﴿مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[1].

وقد صرحت الآية التي أمرت بأخذ الزكاة من المسلمين أن القصد من ذلك هو التوصل إلىٰ تطهير المسلمين وتزكيتهم والمقصود بذلك جعلهم يعظمون الله عوضًا عن المال، يقول تعالىٰ:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

وقد صرحت الآية التي تحدثت عن فرض الصوم علىٰ العباد بأن الله فرضه أيامًا معدودات لعل خوف الله ينمو في قلوب العباد، يقول تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[3].

وقد صرحت بعض الآيات إلىٰ الهدف من أحد أعمال الحج وهو الذبح توليد التقوىٰ والخوف في قلوب العباد من الله، لأن الله لن يصل إليه شيء من لحوم الأضاحي ودمائها، ولكن تصله التقوىٰ التي تتمثل في الخوف منه تعالىٰ، وفي الحرص علىٰ تنفيذ أمره تعالىٰ، فيقول تعالىٰ: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[4].

إذن: أبانت الآيات السابقة عن جوانب من تأليه الله -تعالىٰ التي ترافق بعض العبادات أو تنتج عنها مثل التقوىٰ، والخشوع.

| | | |

---

(1) البقرة: [45، 46].
(2) التوبة: [103].
(3) البقرة: [183].
(4) الحج: [36، 37].

أما حقيقة تأليه الله -تعالىٰ وجوهره فيتركز في المعاني التالية:
تعظيمه -تعالىٰ، والخضوع له، وخوفه، ورجاءه، وحبه، والثقة فيه.
ونحن سندرس كل معنىٰ من المعاني السابقة.

معاني التأليه

تتجلىٰ حقيقة التأليه وجوهره في المعاني التالية:

1. تعظيم الله تعالىٰ:

لا بد للإنسان من أن يعظّم شيئًا من الأشياء لأنه مفطور علىٰ الضعف والنقص، فهو قد يعظّم المال أو الشهوات، أو الأوطان، أو الأشخاص... إلخ، وهو في كل ذلك يجانب الصواب، بل يجب عليه أن يعظّم الله لأنه مالك كل شيء والقادر عليه، والمتصرف فيه، ومدبر أمره وشأنه، وممده بالوجود والحياة... الخ.

وإن نظرة واحدة إلىٰ السموات واتساعها، والنجوم وكثرتها، والإنسان وتعقيده والمخلوقات وتكاملها،... الخ إن نظرة واحدة إلىٰ كل هذا تؤكد عظمة الله وتوجب علىٰ الإنسان تعظيمه.

والتعظيم أساس كبير من أسس تأليه الله تعالىٰ يدل علىٰ ذلك أن أولىٰ الآيات التي نزلت علىٰ محمد صلى الله عليه وسلم دعته إلىٰ تكبير الله تعالىٰ وتعظيمه قال تعالىٰ: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ) [1].

واعتبرت آية آخرىٰ تعظيم الله هي ثمرة التقوي وحصيلتها فقال تعالىٰ: (ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ)[2].

ووصفت آية آخرىٰ تعظيم حرمات الله فهو خير للمسلم عند ربه، فقال تعالىٰ: (ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ)[3].

ويشير إلىٰ ذلك ابتداء الصلاة وهو أهم شعيرة من شعائر الإسلام بكلمة (الله أكبر)، وإبتداء الآذان والإقامة بكلمة (الله أكبر)، وإن الهتاف في الأعياد كلمة (الله أكبر).

2. الخضوع لله تعالىٰ:

---

(1) المدثر: [1-3].
(2) الحج: [32].
(3) الحج: [30].

كل ما في الكون يخضع لله: يأتمر بأمره، ويسير حسب ناموسه، ولا يشذ عن ذلك ذرة ولا جبل.

الكوكب في فلكه، والزهرة في حقلها، والحيوان في حظيرته، وقد أشارت آيات كثيرة إلىٰ سجود كل شيء لله عز وجل وتسبيحه بحمده وهو يعني في أبسط صورة خضوعه لله:

(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩)[1].

(أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا)[2].

(ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ)[3].

(أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)[4].

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩)[5]، والإنسان مفطور علىٰ أن يخضع لأشياء كثيرة أبرزها الشهوات، لكنه قادر علىٰ أن يحدد حجم الخضوع ومساحته، لذلك يفترض فيه أن يوجه خضوعه لله تعالىٰ لأنه جدير به، فهو خالق الشهوات والقادر علىٰ إشباعها.

(1) الرعد: [15].
(2) آل عمران: [83].
(3) فصلت: [11].
(4) النحل: [48، 49].
(5) الحج: [18].

وفي الحقيقة إن الله تعالىٰ دعا الإنسان إلىٰ عبادته التي تعني في آكد معانيها أبرزها الخضوع له، فقال تعالىٰ:

(۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ)[1].

(الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)[2].

(قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ)[3].

(إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ)[4].

(إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ)[5].

(وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ)[6]، وقد نهاه الله تعالىٰ عن عبادة غيره والخضوع له، وبالذات الشيطان فقال تعالىٰ:

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ) [7].

(قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ) [8].

(قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) [9].

3. حب الله تعالىٰ:

طاقة الحب أصلية وغنية ومتشبعة في نفس الإنسان فهو يحب الشهوات والمال والولد، والقوم، والوطن، قال تعالىٰ: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ

---

(1) الإسراء: [23].
(2) هود: [1، 2].
(3) الرعد: [36].
(4) يوسف: [40].
(5) فصلت: [14].
(6) الأحقاف: [1، 2].
(7) يس: [60].
(8) الأنعام: [56].
(9) الكافرون: [12].

ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا) [1].

(وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا) [2].

وقال تعالىٰ: (وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) [3].

وعلىٰ هذه الطاقة يقوم عمران الكون، وبها تستمر دورة الحياة، فلم يخلقها الله عبثًا، تعالىٰ الله عن العبث، لكنه طلب من المسلم أن يكون حبه لله ولرسوله أكثر من كل المحبوبات التي تشعبت إليها، قال تعالىٰ: (قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ) [4]، ليس من شك بأن هذا الطلب القرآني طلب حق؛ لأن الله هو فاطر هذه الشهوات وهو القادر علىٰ إشباعها وإروائها وهو الذي هيأ لذلك مئات الأسباب بل آلافها وهو القادر علىٰ أخذها.

والله تعالىٰ جدير بأن يحب ليس فقط لأنه أشبع شهواتنا فأعطانا المال والولد... الخ بل لأن نعمه تعالىٰ أكثر من أن تحصىٰ، وأجل من أن تعد: فهو الذي خلق الإنسان من العدم في أحسن صورة، وكرمه علىٰ بقية المخلوقات، وأمده بكل أسباب الحياة، وسخّر له الشمس والقمر والليل والنهار... إلخ، وسخر له كل ما في الأرض، وتفضل عليه بإرسال الرسل، وخلق الجنة لإثابة الطائع، والنار لمعاقبة العاصي.

لو تأملنا بعض النعم البسيطة التي نغفل عنها ونستهين بها: شربة الماء التي نشربها، أو حبة القمح التي نلوكها، أو التمرة التي نستمتع بأكلها،

---

(1) آل عمران: [14].
(2) الفجر: [20].
(3) العاديات: [8].
(4) التوبة: [24].

لوجدنا أنها أحتاجت إلىٰ عشرات الشروط، ومئات الموافقات وآلاف المعادلات، حتىٰ وصلت إلينا، ومع كل هذه النعم فإن الإنسان في بعض حالاته يحب غير الله وهي حالات مرضية من غير شك.

وقد أشار القرآن إلىٰ هذا المعنىٰ مستنكرًا ومقررًا أن المؤمنين أشد حبًا لله تعالىٰ:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾[1].

4. خوف الله تعالىٰ:

الإنسان مفطور علىٰ شدة الخوف والفزع قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴾[2].

فهو يخاف علىٰ ماله، ويخاف علىٰ صحته، ويخاف علىٰ ولده، ويخاف علىٰ المستقبل، ويخاف المجهول.

وقد طلب الله من المسلم أن يخافه وحده وهو من أبرز مظاهر تأليه الله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾[3]، واعتبر الجنة ثمرة الخوف من الله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[4].

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[5].

وقد اشترط الله تعالىٰ علىٰ المؤمنين أن يخافوه وحده تعالىٰ من أجل تمكينهم في الأرض فقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم

---

(1) البقرة: [165].
(2) المعارج: [19، 20].
(3) النحل: [51].
(4) النازعات: [40، 41].
(5) الرحمن: [46].

مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ)(1).

وقد أثنىٰ الله علىٰ المؤمنين الذين يخافون اليوم الآخر فقال تعالىٰ: (إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا) (2).

(يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا)(3).

وقد وصفهم في آية أخرىٰ بأنهم يدعون ربهم خوفًا من ناره قال تعالىٰ: (تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ)(4).

وقد أمر الله عباده أن يدعوه خوفًا وطمعًا فقال تعالىٰ: (وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ)(5).

5. رجاء الله تعالىٰ:

الإنسان قوي الرجاء يرجو إرواء شهوته، ويرجو الاستمرار في ذلك؛ وقد يرجو الأسباب في بعض الأحيان، والشخاص في أحيان أخرىٰ، لكن الله يريد من الإنسان أن يتجه إليه برجائه لأنه المالك والقادر والمعطي والوهاب والقوي والعليم بحاجات العبد، وقد أثنت آية علىٰ المسلم الذي يتجه برجائه إلىٰ ربه وصفته بالعلم قال تعالىٰ: (أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ)(6)، وقد طلب الله من المؤمن أن يوجه رجاءه إلىٰ نعيم الله في اليوم الآخر قال

(1) إبراهيم: [13، 14].
(2) الإنسان: [10].
(3) الإنسان: [7].
(4) السجدة: [16].
(5) الأعراف: [56].
(6) الزمر: [9].

تعالىٰ: (فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا)[1].

المؤمن قوي الرجاء في الله تعالىٰ وقد أثنىٰ بهذه الصفة علىٰ صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم قال تعالىٰ: (فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)[2].

وقد وصف الله تعالىٰ الكافرين بأنهم لا يرجون لقاء الله قال تعالىٰ: (إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ)[3]، وقد وصف الله المؤمنين بأنهم يرجون رحمة الله فقال تعالىٰ:

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ)[4].

واعتبرت آيات في سورة الأحزاب أن رجاء الله ورجاء الجنة في اليوم الآخر هما العنصران اللذان يؤهلان العبد للإقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم قال تعالىٰ:

(لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا)[5].

6. الثقة بالله تعالىٰ:

يوّلد خلق الله تعالىٰ للكون المنظم ثقة المؤمن به تعالىٰ.

وقد عاش الأنبياء هذه الثقة بالله عز وجل وبوعده، فأعطتهم سكينة وثباتًا ورسوخًا وبالذات عندما كان يتهددهم الكافرون بالعذاب، والإيذاء، والإخراج، فلا ينكصون عن إيمانهم، ولا يتراجعون عن يقينهم، ولا عن

---

(1) الكهف: [110].
(2) النساء: [104].
(3) يونس: [7،8].
(4) البقرة: [218].
(5) الأحزاب: [21].

موقفهم، بل كانوا يتحدون الكافرين ثقة بالله تعالىٰ وبقدرته وبعذابه الذي ينتظر الكافرين في الدنيا والآخرة.

يحدثنا الله عز وجل عن ثقة نوح عليه السلام بمجيء عذاب الله المخزي للكافرين فيقول تعالىٰ: (وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ)[1] ويبين لنا تعالىٰ ثقة هود عليه السلام بربه ويحدثنا عن تحديه عليه السلام لقومه وآلهتهم أن يجمعوا كيدهم دون تأخير فيقول تعالىٰ:

(قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)[2].

ويوضح لنا ثقة شعيب عليه السلام بعذاب الله القادم للكافرين وبنصر الله للمؤمنين فيقول تعالىٰ:

(مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ)

---

(1) هود: [38، 39].
(2) هود: [53-57].

[1].

ويعرض ثقة محمد صلى الله عليه وسلم بربه فيقول في سورة الأعراف ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾[2].

| | | |

هذه معاني التأليه التي تعتبر (أصل الدين) و(عقيدته)، وهي التي تنبثق عن كلمة (لا إله إلا الله) وتلازمها، وهي المعاني التي يجب أن يسعىٰ المسلم إلىٰ إغنائها في نفسه وتنميتها، وأن ترافق كل عبادة أو طاعة يؤديها لله، وإلا أصبحت العبادات والطاعات رسومًا لا تغني، وحركات لا تفيد، وأصبحت عبئًا علىٰ الشخص نفسه.

إن معاني التأليه هي المعاني التي تثمر الاطمئنان والسكينة والاستقامة والصلاح في الدنيا، وازدياد الأجر في الآخر كلّما ارتقىٰ المسلم سلمها وصعد فيه.

لكن الإنسان قد يعظّم آلهة أخرىٰ مع الله في بعض حالاته المرضيّة، وقد يخضع لها، وقد يحبّها أكثر من الله، وقد يستنصرها، وقد يطلب عندها العزة، فيكون قد وقع في الشرك الذي لا يغفره الله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[3].

ونحن استكمالًا لحديثنا عن (أصل الدين) وعن (العقيدة) سندرس حديث القرآن عن الشرك والمشركين، ثم سنستعرض كيفية مواجهته لهم ثم سنبين أسبابه التي ذكرها.

---

(1) هود: [91-93].
(2) الأعراف: [195-198].
(3) النساء: [48].

الشرك

قد فصل القرآن الحديث عن الشرك، فبين إقرار المشركين بوجود الله تعالىٰ وملكه للكون فقال تعالىٰ: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾[1].

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[2].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[3].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[4].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[5].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[6].

---

(1) المؤمنون: [84-89].
(2) يونس: [31].
(3) الزخرف: [9].
(4) الزخرف: [87].
(5) العنكبوت: [61].
(6) لقمان: [25].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[1].

أقر المشركون حسب الآيات السابقة بأن الله تعالىٰ هو مالك الأرض وهو رب السماوات، وهو رب العرش العظيم، وبيده ملكوت كل الأشياء، ويجير ويرزق ويحي ويميت، وهو خالق السماوات والأرض، وخالق الإنس، ومسخر الشمس والقمر، ومنزل المطر من السماء والأرض، وهم مع إقرارتهم السابقة فإنهم يجعلون لله أندادًا يحبونهم كحب الله قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾[2].

ويتجهون إليهم يطلبون عندهم العزة، ولكن الله يخبرهم مباشرة أنهم سيكفرون بهم ويكونون عليهم ضدًا لأنهم من عبيد الله المخلوقين، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾[3].

ويتجهون إليهم في طلب النصرة لكن الله يخبرهم أنهم لا يستطيعون نصرهم، يقول تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾[4].

وتراهم يفرحون ويستبشرون عند ذكر الآلهة الأخرىٰ ويشمئزون من ذكر الله وحده، ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[5].

وتراهم ينفرون من ذكر الله وحده بل يحبون ذكر آلهتهم الأخرىٰ معه:

---

(1) العنكبوت: [63].
(2) البقرة: [165].
(3) مريم: [81، 82].
(4) يس: [74، 75].
(5) الزمر: [45].

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾[1].

إن الشرك ضمن المعطيات السابقة لضلال ما بعده ضلال، وافتراء لا يبلغه افتراء، وتناقض عجيب غريب، يقول تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[2]، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[3]، لذلك نجد أن القرآن في مواجهة هذا الضلال والافتراء وموقفهم المبني علىٰ التناقض العجيب الغريب بين إقرارهم بأن الله هو الخالق الرزّاق المالك المجير... إلخ... وبين إشراكهم معه آلهة أخرىٰ في الحب وفي طلب النصرة والعزة وفي الاستبشار... إلخ... نجده يقف منهم موقفين:

الأول: يتحدىٰ آلهتهم التي أحبوها واستبشروا بذكرها وطلبوا منها النصرة، أن تخلق شيئًا ما ولو صغيرًا، لأن من أبسط صفات الإله الجدير بالتأليه: الخلق.

الثاني: يستهزئ بهم وبشركهم الذي وقعوا فيه ويقرّعهم عليه، ونحن الآن سنستعرض بعض الآيات التي تتحدث عن شركهم ونبيّن كيف يتحداهم ويستهزئ بهم.

يتحدىٰ الله المشركين في الآيات التالية: أن يظهروا خلق آلهتهم التي عظّموها ووثقوا فيها بدعائهم لها، ويستهزئ بهم قائلًا: لعل كتابًا نزل عليهم بخصوص تعظيمها دون علم من الله فهم متأكدون من صحته وصدقه، وهو في ذلك يوجههم إلىٰ أن الأحكام تبني علىٰ العلم اليقيني أو المشاهدة، ثم تأتي الصفعة القاصمة عندما يؤكد أم موقفهم هش مبني علىٰ الغرور والظلم والكذب.

يقول تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾[4].

---

(1) الإسراء: [46].
(2) النساء: [48].
(3) النساء: [116].
(4) فاطر: [40].

ويقول أيضًا: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[1].

يستهزئ الله بالمشركين في الآيات التالية لأنهم عظّموا ورجوا آلهة لا تملك نفعًا ولا ضرًا لنفسها ويعتبر أنهم في تأليههم لتلك الآلهة في عمىٰ وفي ظلام، ثم يستهزيء بهم ويسألهم هل تشابهت المخلوقات عليهم، فحصل خلط بين ما خلقته آلهتهم المدّعاة وبين ما خلقه الله تعالىٰ، إن هذا لم يحدث لأن آلهتهم لم تخلق شيئًا، إذن يبقىٰ شركهم مثيرًا للسخرية لأن الثابت في قرارة نفوسهم أن الله هو وحده خالق كل شيء قال تعالىٰ: ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴾[2].

استعرضت الآيات التالية بعض مخلوقات الله الواضحة الكبيرة، منها السماء المبينة بغير أعمدة، والجبال التي تحفظ الأرض من الميلان والدوران المبثوثة علىٰ الأرض وفي داخلها، والمطر النازل من السماء، والنباتات الكثيرة التي تملأ السمع والبصر وتحدث المشركين قائلة: فأرونا خلقًا واحدًا من خلق آلهتكم التي عظّمتموها، لكن الجواب معروف بأنهم لن يستطيعوا أن يدلونا علىٰ خلق واحد، فيأتي التقريع المناسب إن المشركين في ضلال واضح ما بعده ضلال، قال تعالىٰ: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ

---

(1) الأحقاف: [4].
(2) الرعد: [16].

ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ)[1].

واستعرضت الآيات التالية كذلك المخلوقات التي خلقها الله وهي: السماء والأرض، والإنسان والدواب التي تحمل اثقالنا، والمطر والزيتون والنخيل والأعناب والشمس والقمر والبحر... إلخ...، واستهزأت بالمشركين لتسويتهم بين من يخلق ومن لا يخلق، ولتأليههم تلك الآلهة التي لا تخلق فحسب، بل هي مخلوق وميتة ولا تدري متىٰ تبعث، أليس هذا مدعاة للسخرية من المشركين والاستهزاء بهم؟؟ بلىٰ إنه أبلغ رد وأنسبه؛ قال تعالىٰ: والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لأية لقوم يتفكرون.

قال تعالىٰ: (خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٤﴾ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي

(1) لقمان: [10، 11].

سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ)[1].

ويقرّع القرآن المشركين في الآيات التالية علىٰ استمرار علاقتهم بالآلهة الزائفة، ويستهزيء بهم علىٰ حبهم وتعظيمهم لها وبخاصة بعد أن أتضح لهم عدم قدرتها علىٰ الخلق الذي يمثل الدليل الأكيد علىٰ صدق الألوهية، ويبيّن لهم عدم قدرتها علىٰ الهداية أيضًا، قال تعالىٰ: (قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ)[2].

وقد سأل الله تعالىٰ الناس في الآية التالية عمن يخلق أرزاقهم، إن جواب الناس الفطري هو الله ولا أحد غير الله، ثم يأتي تقريعهم لانصرافهم إلىٰ تألية غيره تعالىٰ، قال تعالىٰ:(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ)[3].

يسأل القرآن المشركين أسئلة محيطة في سورة النمل عمن خلق السماوات والأرض، وأنزل المطر، وأنبت الحدائق، وعمن يجيب المضطر

---

(1) النحل: [3-21].
(2) يونس: [34-35].
(3) فاطر: [3].

الذي أعيته الحيلة، وعمن يرفع الغمة عنه، وعمن يخرجكم من الظلمات ويحرك الرياح، وعمن يرزق الناس...إلخ...، والجواب الأكيد الذي يعيش داخل نفوسهم علىٰ الأسئلة السابقة: الله الله الله، يأتي بعد ذلك تقريعهم بأنهم قوم غير منصفين بعيدون عن العدل جاهلون، قليلو التذكر، لا برهان لهم لأنهم لا يحكمون جواب نفوسهم في حياتهم، قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٣ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

ثم ييئسهم القرآن من آلهتهم بشكل نهائي، ويخبرهم أنهم لن يخلق أضعف مخلوقات الله ولو ساند بعضهم بعضًا وهو الذباب؛ وإن يسلبهم الذباب شيئًا لن يستطيعوا رده، ويؤكد الله تعالىٰ ضعف الطرفين: آلهتهم والذباب، ثم يبين عدم تعظيمهم لله حق التعظيم، وعدم معرفتهم له تعالىٰ حق المعرفة، قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا

---

(1) النمل:[59-64].

يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)[1].

ويتحدىٰ الله المشركين في الآيتين التاليتين أن يدعوا آلهتهم تلك، فإنها لن تستجيب لهم لأنها عاجزة ضعيفة مثلهم، قال تعالىٰ:(قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ)[2].

وقال أيضًا:(قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا) [3].

وقد صورت آخر سورة الأعراف الشرك خير تصوير حيث بيّنت عدم جداوه وتفاهته واستلابه للإنسان، فالمشرك يشرك بشيء لا يستحق التأليه ، ولا يستطيع نصره ولا نصر نفسه، وليست لديه القدرة علىٰ اتباع الهدىٰ، وهو ضعيف مثل الإنسان مبني علىٰ النقص والفقر، بل الإنسان أرقىٰ منه في بعض الأحيان وفي بعض الأحوال، يقول تعالىٰ: (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ)[4].

طالما أن الشرك مبني علىٰ التناقض، ولا يستند إلىٰ حجج عقلية فما

---

(1) الحج:[73-74].
(2) سبأ:[22].
(3) الإسراء: [56].
(4) الأعراف: [191-195].

العوامل التي تجعل الإنسان يقع فيه؟

اتباع الهوىٰ هو العامل الأساسي الذي يجعل الإنسان يقع في الشرك، ويبيّن القرآن الكريم أن بعض الناس يتخذ إلهه هواه فيصبح كالدابة: لا يسمع ولا يعقل، يقول تعالىٰ: (أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)[1].

ويبيّن في آية أخرىٰ أن بعض الناس يتخذ هو إلهه ويؤدي ذلك إلىٰ تعطيل حواسه التي يمكن أن تقوده إلىٰ الهدىٰ، يقول تعالىٰ: (أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) [2].

وقد ضرب الله لنا مثل الذي انتكس إلىٰ الضلال بعد الهدىٰ بالكلب الذي يلهث وقد حدد سبب ذلك أنه اتباع الهوىٰ، قال تعالىٰ: (وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [3].

وقد وضّحت آيات أخرىٰ أن الاستكبار [4] يحول بين الإنسان وبين الإيمان، قال تعالىٰ: (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ

(1) الفرقان: [43-44].
(2) الجاثية: [23].
(3) الأعراف: [175-176].
(4) الاستكبار: هو هوىٰ للذات في بعض وجوهه .

فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) [1].

وقد خاطب الله رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم وأخبره أن عدم استجابة المشركين تعود إلىٰ اتباعهم أهواءهم، قال تعالىٰ: (فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ ى ى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ)[2]، (بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ)[3] ،(وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ)[4].

وقد بيّن القرآن الكريم أن ضلال الأمم بعد مجئ أنبيائهم يكون في وقوعها في الشرك باتباع الشهوات، فقال تعالىٰ: (۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا) [5].

وقد نهىٰ الله تعالىٰ أهل الكتاب أن يتبعوا أهواء القوم الضالين فقال تعالىٰ:(قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ)[6].

وقد أوضح القرآن الكريم أن الشرك الذي وقع فيه العرب في الجزيرة العربية لا يخرج عن خط الشرك الذي وقعت فيه الأمم الأخرىٰ، ونفسر ذلك في أمرين اثنين هما: تحليلهم وتحريمهم، وافتراؤهم أن الملائكة بنات الله.

تحليل العرب وتحريمهم:

وضّح القرآن أن العرب عندما يُحللّون ويحرّمون يبنون ذلك علىٰ

---

(1) لقمان: [7] .
(2) القصص: [50] .
(3) الروم: [29] .
(4) القمر: [3] .
(5) مريم: [59].
(6) المائدة: [77].

الهوىٰ وحده، يقول تعالىٰ:(وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ)[1].

فهم يستندون إلىٰ الهوىٰ في تقسيمهم الزروع والأنعام ويكون الهوىٰ أكثر وضوحًا عندما يردون نصيب شركائهم الذي يصل إلىٰ الله، ولا يردون نصيب الله الذىٰ يصل إلىٰ شركائهم، وتقرعهم الآية في النهاية علىٰ حكمهم السيء وتنعي عليهم ذلك التصرف.

ويقول تعالىٰ في آية أخرىٰ:

(وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣٨ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ)[2].

يبيّن الله تعالىٰ في الآيتين السابقتين أن المشركين يحرّمون الأنعام والزروع علىٰ الإناث ويحللونها للذكور، ويحرمون السائبة والبحيرة والحامي، ويحرمون الحج علىٰ بعض الأنعام، وهم في تحريمهم السابق وتحليلهم يستندون إلىٰ الهوىٰ الذي يقودهم افتراء الكذب، ويتبيّن انقيادهم للهوىٰ واتباعهم له في الآية الثانية عندما يحللون حليب الأنعام علىٰ الذكور ويحرمونه علىٰ النساء، عندما تموت الأنعام يأكل منها النساء والرجال علىٰ قدم المساواة، وفي كلا الآيتين يهددهم الله بأنه سيعاقبهم علىٰ كذبهم وافترائهم.

(1) الأنعام: [136].
(2) الأنعام: [138-139] .

ويقول تعالىٰ في آيات أخرىٰ متحدثًا عن صورة أخرىٰ من صور تحريمهم وتحليلهم قال تعالىٰ:(ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ)[1].

تسألهم الآيات عن كل زوج من الأنعام وتستهزئ بهم: هل حرم الله الذكرين أم الأنثيين؟ أم حرم ما احتوته أرحام الأنثيين؟ لأنها تعلم تقلب أهوائهم في التحليل والتحريم ثم تعلمهم أثناء ذلك النهج السليم الذي يجب أن يبنىٰ عليه التحليل والتحريم وهو: العلم الأكيد والخبر الصادق، ثم تقرّعهم وتوّبخهم علىٰ الكذب الذي وقعوا فيه.

الملائكة بنات الله:

زعم العرب أن الملائكة إناث وهم بنات الله تعالىٰ، وقد وضّح القرآن إبتداءً أن الهوىٰ هو الذي أوقعهم في هذه الفرية، فقال تعالىٰ:(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ)[2].

إذن الهوىٰ ولا شيء غير الهوىٰ هو الذي جعلهم يتقوّلون هذا الكلام، لكن أحدهم يسود وجهه عندما يبشر بالأنثىٰ ويتردد بين إبقائها علىٰ الحياة أو وأدها، ثم تقرعهم الآيات علىٰ حكمهم السيىٰء الذي توصلوا إليه فكيف

---

(1) الأنعام: [143-144] .
(2) النحل: [143-144] .

يرضىٰ أحدهم لله ما لم يرضه لنفسه؟؟!!

وقال تعالىٰ أيضًا: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[1].

تستهزئ بهم الآيات السابقة لقولهم إن الملائكة إناث وتوجههم إلىٰ أن إثبات تلك الحقيقة يحتاج إلىٰ شهادة أو إلىٰ كتاب، وهم لم يحصلوا علىٰ إي منهما لذلك فإن قولهم كذب واتباع لهوىٰ في أنفسهم.

ويقول تعالىٰ:﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[2].

تستهزئ بهم الآيات السابقة عندما يحتكرون الذكر لأنفسهم ويتركون الأنثىٰ لله تعالىٰ، وتقرعهم بأن تلك القسمة غير عادلة، ثم تبيّن لهم أن تلك الأحكام مبينة علىٰ هوىٰ الأنفس وشهواتها، وتعلمهم أن أحكامهم يجب أن لا تكون مبنية علىٰ الظن والهوىٰ.

ويقول تعالىٰ: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ

(1) الصافات: [149-159].
(2) النجم:[19-23].

إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ)[1].

تستهزئ الآيات بهم علىٰ قسمتهم التي قسموها وتقرعهم متسائلة هل أخذ الله البنات وأصفاكم بالبنين؟ وتبيّن كرههم للأنثىٰ بأن أحدهم يسود وجهه في تبشيره بإحداهن فكيف يلصق بالله ما يكرهه؟؟!! ثم تعلمهم النهج الصحيح لإثبات مقولة ما بالشهادة أو بكتاب، أي بالمعاينة أو الخبر الصادق، وطالما أن ادعاءهم السابق لم يثبت بأحد الدليلين السابقين فهو كذب واتباع هوىٰ.

إذن لا يخرج شرك العرب في جزيرتهم عن الشرك الذي وقعت فيه الأمم الأخرىٰ وهو: إنه اتباع هوىٰ وخضوع له.

(1) الزخرف: [16-21].

الخلاصة

حددنا أهم المعاني التي انبثقت عن أصل الدين وهو (لا إله إلا الله) والتي يطلب من المسلم تحقيقها،ثم رأينا عدم معقولية الشرك وكونه طارئًا مقابل معرفة الله وكونها أصلية في النفس البشرية، وتناقض المشركين، وكيف أن الشرك ينمو عند انبثاق الأهواء وترعرعها، وهو أمر طبيعي يلتقي ويتكامل مع معاني التألية في كلمة (لا إله إلا الله)، فبمقدار نقصها ينجح العبد نحو الشرك.

| | | |

والآن: بعد أن أصبحت المعاني التي تنبثق عن (أصل الدين) واضحة، والمناخ الذي يترعرع فيه الشرك بينًا؛ ما الذي يبني هذه المعاني في قلب المسلم؟

يبينيها: الإيمان، والإسلام، والقرآن.

ونحن سنرىٰ في في الصفحات التالية دور كل منها.

بناء معاني التألية في ذات المسلم

ذكرنا أنّ معاني التأليه المنبثقة عن (العقيدة) المتمثلة في كلمة (لا إله إلا الله) يبنيها الإيمان والإسلام والقرآن في ذات المسلم.

وسأستعرض الآن دور كل من الإيمان والإسلام والقرآن في عملية البناء.

أولًا: دور الإيمان في بناء تألية الله تعالىٰ في ذات المسلم:

الإيمان كما حدده القرآن الكريم والحديث الشريف هو: الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر، وسنرىٰ كيف يبني كل ركن من أركان الإيمان تأليه الله في ذات المسلم.

1- الإيمان بالله تعالىٰ:

لقد حدّثنا القرآن الكريم والحديث الشريف الكثير عن الله تعالىٰ، وأخبرنا أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وأنه يدبر الأمر من السماء إلىٰ الأرض وأنه يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما نعد، يقول تعالىٰ:(ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)[1].

وأخبرنا الله تعالىٰ أنه خلق آدم خليفة له، وأنه أخبر الملائكة بذلك وأنه علّمه الأسماء التي يحتاج إليها أثناء خلافته، قال تعالىٰ:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن

---

(1) السجدة: [4-9].

يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ)(1).

وأخبرنا الله تعالىٰ أنه خلق السماوات والأرض والظلمات والنور، وأنه خلق الإنسان، وقضىٰ الآجال، وأنه يعلم السر والجهر ويعلم ما نكسب، وأنه أهلك المكذبين، فقال تعالىٰ:(ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ)(2).

وأخبرنا الله تعالىٰ أنه إذا قضىٰ أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، فقال تعالىٰ:(إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)(3).

وأخبرنا كذلك أنه يسمع النجوىٰ مهما قل عدد أصحابها أو كثر، فقال تعالىٰ:(أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ)(4).

وأخبرنا أن ملكه شامل، وعلمه محيط، وإرادته نافذة، فقال تعالىٰ: (

---

(1) البقرة: [30-32].
(2) الأنعام: [1-5].
(3) البقرة:[117].
(4) المجادلة: [7].

لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ)[1].

وقد أجلىٰ القرآن ما يتعلق بذات الله جلاًء كاملًا بشكل واضح لكي يعرف العبد ربه ولا يبقىٰ أي غموض في هذا الموضوع.

لا شك أن إيمان المسلم بالله تعالىٰ بالصورة التي طرحها القرآن الكريم يغني تأليه الله في ذاته وينميّه ويبنيه بناءًا راسخًا، فهو عندما يؤمن بأن الله خلق السماوات والأرض والليل والنهار والشمس والقمر والإنسان والجبال والشجر فإنه يعظم الله تعالىٰ وحده.

وعندما يؤمن المسلم أنه قد خضعت لله تعالىٰ السماوات والأرض، ورضخ له الليل والنهار، والتزمت بأمره تعالىٰ المخلوقات جميعًا، وسارت علىٰ ناموسه تعالىٰ الكائنات كلها، فإنه يخضع لله تعالىٰ.

وعندما يؤمن المسلم أن الله خلق الأرض ذلولًا من أجل الناس، وفصّل الليل والنهار من أجل أن يحسبوا أيامهم ومن أجل أن يعملوا في النهار ويسكنوا في الليل، وسخّر المخلوقات جميعًا لهم... إلخ...يجعله كل هذا يتجه بالحب إلىٰ الله.

وعندما يؤمن المسلم أن الله هو الخالق لهذه الآيات العظيمة: السماوات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والإنسان، وغيرها كثير، وهو تعالىٰ المسيّر لها الحافظ له، يجعله يثق بالله تعالىٰ.

وعندما يؤمن المسلم أن الله مالك السماوات والأرض وبيده تعالىٰ خزائنهما، وأنه تعالىٰ كريم غني يجيب دعوة الداعي يجعله يرجو الله تعالىٰ.

وعندما يؤمن المسلم أن الله تعالىٰ سخّر بعض الملائكة التي تحصي أعماله، وأنه أهلك المكذبين، وأنزل عليهم العذاب في الدنيا، وأنه أعد له عذابًا أشد وأنكىٰ في الآخرة يجعله يخاف الله تعالىٰ.

أما المشكلتان اللتان أثارتهما كتب العقائد وهما: وجود الله تعالىٰ وصفاته [2]، فهما مشكلتان غريبتان عن القرآن والحديث، وذلك لأن الإقرار بوجود الله فطري وكما وضحنا عند دراستنا لكتب العقائد السابقة، ولأن قضية الصفات مرتبطة بالإسلام، فعندما يسلم المرء نفسه لله يصبح

---

(1) البقرة: [284].

(2) إن مما يثير الدهشة أن معظم الكتّاب المحدثين الذين كتبوا في مجال العقائد قد تناولوا هاتين المشكلتين علىٰ أنهما أهم مشكلتين يواجهان الإنسان، وأنهما عقيدة الإسلام، ولا نجد تعليلًا لمواقفهم سوىٰ أنهم استلهموا التاريخ ولم يستلهموا القرآن..

من مقتضيات إسلامه التسليم لله عز وجل بما وصف به نفسه، وعندما لا يسلم المرء نفسه لله بشكل كامل ينتج عن هذا محاكمة أقوال الله بعقله وتبرز المشكلة التي لا يحلها إلا تعميق الاستسلام لله تعالىٰ.

الخلاصة

ليس هناك إيمان عقلي بارد بالله تعالىٰ، بل إن الإيمان بالله مرتبط ارتباطًا مباشرًا بتعظيمه أو الخضوع له تعالىٰ، أو حبه، أو الخوف منه، أو الرجاء فيه، أو الثقة فيه، ويجب أن يولد الإيمان بالله بعض هذه المعاني أو كلها.

ومما يؤكد المعاني السابقة أن القرآن الكريم لم يتحدث عن الله تعالىٰ حديثًا مجردًا بل ربط حديثه بخلق شيء، أو بنصر نبي، أو بإهلاك عاصٍ إلخ...مما يشير إلى أن المقصود هو توليد معاني : التعظيم لله ، و الخوف منه ، و الرجاء فيه إلخ.... من هذا الربط في الحديث.

2- الإيمان بالملائكة:

حدثنا القرآن الكريم والحديث الشريف عن الملائكة الحديث الكثير، فأخبرنا أنها مخلوقات نورانية لا تعصي الله تعالىٰ، وتفعل ما تؤمر، وأنها تسبح الله ولا تفتر عن ذلك، وأن منها من يحمل العرش، ومن يقف علىٰ أبواب جهنم، ومن يقبض الأرواح، ومن ينزل بوحي الله كجبريل عليه السلام، ومن ينفخ في الصور يوم القيامة كاسرافيل عليه السلام، ومن يكتب حسنات الناس وسيئاتهم... إلخ.

والسؤال المحدد الذي يهمنا الإجابة عليه هو:

وكيف يبنىٰ الإيمان بالملائكة تأليه الله تعالىٰ في ذات المسلم؟

الخلق دليل قدرة وعلم وحكمة وهو في الوقت نفسه دليل الألوهية كما سبق أن وضحنا وقد تحدىٰ الله تعالىٰ به الكافرين وآلهتهم، فعندما يعلم المسلم أن الله تعالىٰ قد خلق مخلوقات من نور تحيط به تسمعه وتراه، وهي

عظيمة في خلقها، وفي قدرتها، وفي المهام التي تقوم بها يولد ذلك تعظيم الله في قلبه، ويبني بالتالي جانبًا من جوانب تأليهه تعالىٰ، عندما يعلم المسلم ويؤمن ويوقن أن الله تعالىٰ سخّر بعض الملائكة لحفظه يقول تعالىٰ: (لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ)[1]، ويقول تعالىٰ: (إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ)[2]، ويقول تعالىٰ: (وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ)[3]، وأنه سَخّر تعالىٰ، بعضهم للصلاة عليه، ولإخراجه من الظلمات إلىٰ النور، يقول تعالىٰ:(هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ)[4]، وأنه تعالىٰ سَخّر بعضهم الآخر للاستغفار له، يقول تعالىٰ: (ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ)[5]، فعندما يعلم كل هذا يتولد في نفسه حمد الله وشكره علىٰ هذه النعم التي لا تقدر بثمن، وينمو بالتالي جانبا التعظيم والحب في قلبه.

وعندما يخبر الله تعالىٰ المسلم أن الملائكة قاتلت في بدر، وأنها ثبتت المؤمنين، يقول تعالىٰ:(إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ١٢٤ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ)[6]، (إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ)[7]، (إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ

---

(1) الرعد:[11]، وانظر تفسير القرطبي لهذه الآية (ج9-ص290).
(2) الطارق:[4].
(3) الأنعام: [61].
(4) الأحزاب: [43].
(5) غافر:[7].
(6) آل عمران: [124-125].
(7) الأنفال: [9].

أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ)[1]، وعندما يعلم هذا ويوقن به يجعله يرجو الله تعالىٰ أن يمده بجنوده في محنه ومعاركه مع الكافرين، ويبني بالتالي جانبًا من جوانب التأليه.

ويبني الإيمان بالملائكة تعظيم الله تعالىٰ والخوف منه عندما يعلم أن الله تعالىٰ سخّرها لمعاقبة الكافرين عند الموت، يقول تعالىٰ: (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ)[2]، (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ)[3]، (ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)[4].

وينمي الإيمان بالملائكة الخوف من الله تعالىٰ عندما يعلم أن بعضًا منهم يحصي عليه أعماله حيث يقول تعالىٰ:(وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)[5].

(1) الأنفال: [12].
(2) الأنفال: [50].
(3) الأنعام: [93].
(4) النحل: [32-33].
(5) ق: [16-18].

3- الإيمان بالكتب:

أخبرنا الله تعالىٰ في القرآن الكريم أنه أنزل كُتبًا متعددة علىٰ رسل مختلفين في مراحل متعددة من الزمان منها: الصحف علىٰ إبراهيم عليه السلام، والزبور علىٰ داود عليه السلام، والتوراة علىٰ موسىٰ عليه السلام، والإنجيل علىٰ عيسىٰ عليه السلام، وكان آخرها القرآن الكريم أنزله الله تعالىٰ علىٰ محمد صلى الله عليه وسلم.

فوصف الله تعالىٰ التوراة التي أنزلها علىٰ موسىٰ وهارون بأنها فرقان وبأنها ضياء وذكر فقال تعالىٰ: (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ)[1]، ووصفها في آية أخرىٰ بأن فيها هدىً ونور، يقول تعالىٰ: (إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ)[2].

ووصف كذلك الإنجيل بأن فيه هدىً ونورًا قال تعالىٰ: (وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ)[3].

ثم أنزل الله تعالىٰ القرآن علىٰ محمد صلى الله عليه وسلم وأخبرنا أنه مصدق للكتابين السابقين التوراة والإنجيل ومهيمن عليهما، فقال تعالىٰ: (نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى

---

(1) الأنبياء: [48-50].
(2) المائدة: [44].
(3) المائدة: [46].

لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ)[1]، (وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ)[2].

وقد رد القرآن علىٰ الناس الذين أنكروا أن ينزل الله تعالىٰ شيئًا بأن استنكارهم ناتج من عدم تقديرهم لله ورحمته ورأفته بعباده، يقول تعالىٰ: (وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)[3].

وقد ذكر القرآن العرب في أكثر من موضع بنعمة الكتاب المنزل بلسانهم، فقال تعالىٰ: (لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)[4]، (بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ)[5] ، (إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)[6].

وقد بين الله تعالىٰ أن هذا القرآن فرقان بين الحق والباطل، فيه الهدىٰ والشفاء، وضرب الله تعالىٰ فيه مختلف الأمثال، وأنه ميسر، وأنه عربي البيان، وقد أوردنا في بداية بحثنا هذا صفاته وطبيعته وآثاره بما يغني عن إعادته في هذا المكان.

والسؤال الوارد الآن هو:

كيف يبنىٰ الإيمان بالكتب تألية الله في نفس المسلم؟

إن الكتب نعمة كبرىٰ من نعم الله تعالىٰ علىٰ الإنسان تهديه إلىٰ الحق

(1) آل عمران: [3-4].
(2) المائدة: [48].
(3) الأنعام: [91-92].
(4) الأنبياء: [10].
(5) المؤمنون: [71].
(6) يوسف: [2].

في الدنيا والآخرة، وفضل يبنىٰ عقله ونفسه، ونور مبين يعم أرجاء حياته، وخير عميم يدل علىٰ رأفة الله تعالىٰ ورحمته به ورعايته له، وإن الموقف الطبيعي الذي تقتضيها هذه النعمة وهذا الفضل وهذا النور وهذا الخير أن يحمده تعالىٰ وأن يثني عليه من أجلها.

إذن يبنىٰ الإيمان بالكتب جانبي التعظيم والحب لله تعالىٰ في نفس المسلم لأنه حمده تعالىٰ والثناء عليه هو تعظيم له تعالىٰ وحب.

4-الإيمان بالرسل:

أخبرنا الله تعالىٰ أنه بعث نبيًا إلىٰ كل أمة من الناس، فقال تعالىٰ: (إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ)[1]،(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)[2].

واختار الله تعالىٰ أنبياءه من أفضل الناس نفسًا وخلقًا، فقال تعالىٰ: (ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ)[3]، وربّاهم تعالىٰ علىٰ عينه، فقال عن موسىٰ عليه السلام: (وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ)[4]، ورعاهم تعالىٰ منذ طفولتهم وزينهم بكل ما يحببهم إلىٰ الناس، وأبعدهم عن كل رجس وشرك، وأيّدهم بمعجزاته التي تدل علىٰ صدقهم ثم خاطبوا أقوامهم مشفقين عليهم من عذاب اليوم الآخر، ناصحين لهم، غير راغبين في أجر منهم، وقد نقل القرآن الكريم بعض مخاوف الأنبياء علىٰ أقوامهم، فقال تعالىٰ:

(إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)[5].

(أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ)[6].

(أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)[7].

(فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ)[1].

---

(1) فاطر: [24].
(2) الرعد: [7].
(3) الأنعام: [124].
(4) طه: [39].
(5) الأعراف: [59].
(6) الأعراف: [68].
(7) الأعراف: [62].

وقد أوجز النبي القول عندما دعا قومه إلىٰ تأليه الله وحده و إلىٰ عبادته وحده، وأحسن الخطاب عندما ناداهم بكلمة (يا قوم) تحببًا وتقربًا، قال تعالىٰ:

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[2].

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[3].

وقد أوصىٰ تعالىٰ موسىٰ وهارون أن يقولا القول اللين لفرعون، قال تعالىٰ: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[4].

وقد تفنن نوح عليه السلام في دعوة قومه: فلوّن في الزمان، فلعلهم يستجبيبون، في الليل إن لم يستجيبوا في النهار، ولعلهم يقبلون الدعوة في النهار إن لم يقبلوها في الليل، قال تعالىٰ:﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾[5]، وقلّب في الطريقة فلعل الجهر أجدىٰ، ولعل الإسرار أنفع، قال تعالىٰ:

﴿ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾[6].

وقد ذكر كل نبي قومه بنعم الله تعالىٰ الكثيرة عليهم: في أجسامهم في بنيانهم في زروعهم... إلخ، وحشد الأدلة الكثيرة التي تشدهم إلىٰ القضية الموضوعية التي يدعوهم لها وهي تأليه الله وحده، ولكن الملأ واجهوا أدب الأنبياء وموضوعيتهم بأمور شخصية مثل: أنتم بشر مثلنا، أنتم ضالون، سفهاء كاذبون، اتبعكم الأرذلون، قال تعالىٰ:

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[7].

---

(1) يونس: [72].
(2) الأعراف: [65].
(3) الأعراف: [73].
(4) طه: [44].
(5) نوح: [5].
(6) نوح: [89].
(7) الأعراف: [66].

(قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)[1].

(فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ)[2].

(وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ)[3].

وقد كانت نتيجة الصراع مع الملأ أن آمن قلة من الناس، وقد أبرز القرآن ذلك في سورة الشعراء عندما جاء قوله تعالىٰ: (وما كان أكثرهم مؤمنين) عدة مرات تعقيبًا علىٰ دعوة الأنبياء: نوح، وهود، وصالح، وشعيب عليهم السلام لأقوامهم.

ثم يكيد الكافرون للمؤمنين، ويحاولون الإيقاع بهم، فينجي الله المؤمنين، ويهلك الكافرين بالمطر كما فعل مع قوم نوح، وبالريح كما فعل مع عاد، وبالصاعقة كما فعل مع ثمود، وبالظلة كما فعل مع مدين،... إلخ.

هذه باختصار بعض معالم قضية الرسل كما طرحها القرآن الكريم، الآن يمكن أن نأخذ سيرة هود عليه السلام مع عاد نموذجًا لسير الأنبياء التي قصها علينا القرآن:

وتتلخص سيرته في آيات سورة الأعراف بأن الله ابتعثه إلىٰ عاد، فدعاهم إلىٰ عبادة الله وحده انطلاقًا من الحقيقة الكونية وهي أنه ليس لهم إله إلا الله، فأجابه الملأ الكافرون بأنهم يرونه سفيهًا ويظنون كذبه، فنفىٰ هود السفاهة عن نفسه وقرر أنه رسول من رب العالمين يبلغهم وحي ربه وينصحهم، ثم يذكرهم ببعض نعم الله عليهم وهي أنه أربىٰ أجسامهم عن

---

(1) الأعراف: [60-61].
(2) هود: [27].
(3) المؤمنون: [33-34].

أجسام قوم نوح، ثم يتضح أنهم يرفضون الخضوع لله وحده، وأنهم يريدون الاستمرار فيما كان يعبد آباؤهم، ويستهزئون بالوعيد الذي تهددهم به، فيغضب هود عليه السلام لإصرارهم علي المعصية، وينعي عليهم تعلقهم بأسماء دون أن يكون هناك سلطان فيها، وينزّل الله عذابه فيهلك الكافرين وينجو هود ومن معه برحمة الله وفضله.

يقول تعالىٰ:

(وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ)[1].

أما سيرته عليه السلام في سورته المسماة باسمه فتتلخص في أنه دعا قومه إلىٰ عبادة الله وحده انطلاقًا من الحقيقة الموضوعية وهي أنه ليس لهم إله إلا الله تعالىٰ، ثم يوضح لهم أنه لايبتغي الأجر في دعوته، ثم يدعوهم إلىٰ استغفار الله والتوبة إليه ويبين آثار ذلك، لكنهم يصرون علىٰ عبادة

(1) الأعراف:[65-72].

آلهتهم ويعلنون عدم استعدادهم للإيمان ويتهمون هودًا بأنه مصاب بلوثة من قبل آلهتهم، ثم يعلن هود-عليه السلام- توكله علىٰ ربه، وثقته به، ثم حدث ما توقعه هود فنزل عذاب الله فأنجي الله منه هودًا ومن معه وعذب الكافرين من عاد في الدنيا والآخرة، يقول تعالىٰ:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾[1].

والسؤال الذي يتعلق بموضوعنا وتهمنا الإجابة عليه:

كيف يبني الإيمان بالرسل تأليه الله تعالىٰ في نفس المسلم؟

إن ابتعاث الأنبياء والرسل إلىٰ الناس نعمة كبرىٰ من نعم الله التي لا تقدر بثمن، وذلك لأنهم يحملون الحق إليهم، وينافحون عنه، ويتعبون في إيصاله إليهم، ويهدونهم إليه، ويكونون قدوةً لهم فيه، وتقتضي هذه النعمة حمد الله ، لأن الحمد يعني الحب والتعظيم.

---

(1) هود: [50-60].

يبني الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام الثقة بالله تعالىٰ في نفس المسلم لأن سيرتهم توضح رعاية الله تعالىٰ لعباده الصالحين، ويبني تعظيمه تعالىٰ لأنه أمضىٰ سنته في انتصار الحق وزهوق الباطل، والخضوع له تعالىٰ طالما أنه خضع له من هم أفضل منه، والخوف من عقابه تعالىٰ لأنه أهلك المكذبين، والرجاء فيه تعالىٰ لأنه نصر المؤمنين.

5-الإيمان باليوم الآخر:

قام حديث الله تعالىٰ عن اليوم الآخر في القرآن حول ثلاثة قضايا:

الأولىٰ: اختلال نظام الكون يوم القيامة.

الثانية: النعيم الذي يلقاه المؤمن.

الثالثة: العذاب الذي يلقاه الكافر.

ونحن سنتناول إن شاء الله كل قضية ونرىٰ كيف تبني التأليه في ذات المسلم.

(1) اختلال نظام الكون:

سيختل نظام الكون، هذا ما سيحدث القيامة: السماء المتماسكة ستتصدع، الأرض ستتزلزل، الجبال الراسخة ستنسف، النجوم المتألقة ستذوب، البحار الواسعة ستتفجّر، الشمس الملتهبة ستطفأ... إلخ، يقول تعالىٰ: (إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ)[1].

(إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ)[2].

---

(1) التكوير: [1-13].
(2) الإنفطار: [14].

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾[1].

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾[2]....الخ.

ما الذي يبنيه الإيمان بالحقائق السابقة؟

يركن الإنسان إلىٰ الكون الكبير، الواسع، المنتظم، في بعض الأحيان فيعظمه وقد يقوده ذلك إلىٰ الضلال، وهذا ما حدث مع الفلاسفة عندما قالوا بقدم العالم، ومع الناس في العصر الحديث عندما قالوا: إن الطبيعة خَلَقَتَ وأَوْجَدَتَ...إلخ، فعندما يؤمن المسلم أن كل هذا الكون سيختل نظامه، ويفقد ترابطه ويصغر كبيره سيوّجه تعظيمه لله تعالىٰ الذي سيفعل هذا لأن هذا يعني أنه أكبر وأعظم من الكون الذي كان بداية فتنة له.

(2) نعيم الجنّة:

أوضح القرآن الكريم النعيم الذي ينعم به الله تعالىٰ علىٰ المؤمنين في الجنة من طعام، وشراب، وسكينة، ولباس، وحلية...الخ، يقول تعالىٰ:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ٢٧ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ٣٣ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ٣٤ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ٣٧ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ٣٨ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾[3].

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ٣٥ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ٣٦ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾[4].

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ

---

(1) الحاقة: [13-16].
(2) الزلزلة: [1-2].
(3) الواقعة: [27-40].
(4) النبأ: [31-37].

ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا)[1].

(وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَاْ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ﴿١٦﴾ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا)[2].

ما الذي يبنيه الإيمان بنعيم الجنة؟

إن الحديث السابق عن النعيم وإيمان المسلم به يبني رجاءه فيجعله يرجو نعيم الله في اليوم الآخر الذي لا يمكن أن يقارن بأي نعيم في الدنيا.

(3) عذاب النار:

أوضح القرآن الكريم العذاب الذي يصيب الكافرين يوم القيامة، وفصّل لنا بعض وقائعه، فذكر أن النار وقودها الناس والحجارة، وأن شررها كالقصر، وأنها تسأل هل من مزيد، وأنها تتميز من الغيظ، وأن الكافر يتمنىٰ من شدة عذابها ألا يكون قد استلم كتابه، ولا عرف حسابه، وأنه هلك قبل ذلك، ويتحسر حيث لم يفيده ماله وسلطانه، وأن الكافرين تلفح وجودهم رياح السموم الحارة، وأنهم يستظلون بظلٍ لا باردٍ ولا كريمٍ، ويقول تعالىٰ:

(وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ)[3].

---

(1) الإنسان: [56].
(2) الإنسان: [12-22].
(3) المرسلات: [29-33].

(ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ)[1].

(وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ)[2].

ما الذي يبنيه الإيمان بعذاب النار؟

عندما يتلو المسلم آيات الله التي تتحدث عن النار، يوقن بالعذاب الذي يصيب الكافرين والعاصين فيها، لاشك أن هذا يوجه خوفه إليها، لأن عذابها لا يمكن أن يقارن بأي عذاب في الدنيا.

6-الإيمان بالقضاء والقدر:

إن الإيمان بأن الله تعالىٰ قضىٰ الأشياء والحوادث وقدّرها قبل أن تقع جزءٌ من الإيمان المطلوب من المسلم، قال تعالىٰ: (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ)[3]، وقال تعالىٰ: (قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ)[4]، وقال تعالىٰ: (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ)[5]، (وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ)[6].

ما الذي يبنيه الإيمان بالقضاء والقدر في تأليه المسلم لله تعالىٰ؟

يبني ذلك الثقة بالله تعالىٰ وبأن ما أصابه ما كان ليخطئه، وبأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن ما حدث معه كان بعلم القوي وبإذنه تعالىٰ.

---

(1) الواقعة: [41-46].
(2) النبأ: [21-30].
(3) الحديد: [22].
(4) التوبة: [51].
(5) القمر: [52-53].
(6) الحجر: [4].

ثانيًا: دور الإسلام في بناء تأليه الله تعالىٰ في ذات المسلم؟

الإسلام كما حدده حديث جبريل عليه السلام الذي جاء يعلّم المسلمين دينهم هو: الشهادتان، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت.

فكيف يبني كل ركن من هذه الأركان تأليه الله تعالىٰ في ذات المسلم.

1- الشهاداتان:

الشهادة في أحد معانيها وأبسطها حضور العقل وأعمال الحواس، فعندما يطلب الإسلام أن يشهد أن لا إله إلا الله هذا يعني أن عليه أن يعمل حواسه: من بصر وسمع وذوق في مخلوقات الله، من أجل أن يشهد أن الله تعالىٰ خلق وحده الكون، ويصرف وحده أمره ويرزق وحده خلائقه، ويحفظ وحده حركته... إلخ.

حيث يؤدي ذلك به إلىٰ تعظيمه تعالىٰ والخضوع له، وحبه، وخوفه، والرجاء فيه تعالىٰ والثقة به تعالىٰ.

وتعني شهادة أن محمدًا رسول الله أن يتلو المسلم القرآن الكريم لأنه المعجزة الباقية والدلالة الأكيدة علىٰ أن محمدًا مرسل من ربّه، حيث يؤدي ذلك إلىٰ أن يعظم الله تعالىٰ علىٰ نعمة إرسال محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن يحبه تعالىٰ لأنه أيده بنصره ، وأن يخافه تعالىٰ لأنه أهلك المكذبين، وأن يرجوه تعالىٰ أن يعلي دينه في الوقت الحاضر كما أعلاه في السابق.

2- الصلاة:

ورد الأمر بالصلاة منذ إبتداء الدعوة فقال تعالىٰ: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا)[1].

وقد اعتبر الإسلام الصلاة ركن الدين الذي يكفر تاركها في أرجح الأقوال، وهي أول ما يحاسب عليه المسلم يوم القيامة، وقد بشر الله تعالىٰ الخاشعين فيها بالفلاح، فقال تعالىٰ: (قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ

(1) المزمل: [1-5].

خَٰشِعُونَ)[1]، وبشرهم كذلك بالجنة يوم القيامة، فقال تعالىٰ: (إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)[2]، وحث القرآن المسلم أن يصبر عليها وأن يأمر أهله بها، فقال تعالىٰ: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ)[3]، وبيّن الله تعالىٰ أنها تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، فقال تعالىٰ (إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ)[4].

وقد تحدث القرآن عن كثير من أركانها، فقال تعالىٰ:

(وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ)[5]، وقال عن ركوعها وسجودها: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[6]، وقد أشار إلىٰ الوضوء الذي يسبقها، فقال تعالىٰ: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ)[7].

إن الصلاة مدرسة كاملة: فيتطهر المسلم استعدادًا للصلاة، ويتجه إلىٰ الكعبة في بيت الله الحرام، ويقف قانتًا لله تعالىٰ، ثم يركع ويسجد، ثم يختم صلاته داعيًا ومستغفرًا.

ما الذي تبنيه الصلاة في ذات المسلم في مجال تأليه الله تعالىٰ؟

تبني الصلاة تعظيم الله تعالىٰ في ذاته لأنه يقتطع من وقته وجهده قدرين يسأل فيهما ربه أن يعطيه، وأن يعافيه، وأن يعينه، وتبني الخضوع لله –تعالىٰ لأنه يمتثل أمره تعالىٰ في الركوع والسجود، وفي التطهر

(1) المؤمنون: [1-2].
(2) الذاريات: [15-18].
(3) طه: [132].
(4) العنكبوت: [45].
(5) البقرة: [238].
(6) الحج: [77].
(7) المائدة: [6].

بالصورة التي أمر بها، وفي الوقت الذي أراده تعالىٰ، وتبني حبه تعالىٰ لأنه يحمده تعالىٰ في صلاته علىٰ نعمه الكثيرة، وتبني الرجاء فيه تعالىٰ لأنه يسأله استمرار النعم التي أنعم عليه بها، ويسأله تعالىٰ المزيد منها، كما يدعوه أن ينعم عليه بالجنّة، ويوجه خوفه إليه تعالىٰ من أن يسلبه النعم التي أنعم عليه بها أو من أن يعذبه في النار التي أعدّها.

3- الزكاة:

فرض الله تعالىٰ الزكاة في أكثر من موضع في القرآن وفصّلت السنة أحكامها وأنصبتها، واعتبرها القرآن حقًّا معلومًا للسائل والمحروم، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾[1]، وبينت آية أخرىٰ وجوه إنفاقها، فقال تعالىٰ: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[2].

فما الذي تبنيه الزكاة في ذات المسلم في مجال تأليه الله تعالىٰ؟

يبني إخراج الزكاة في ذات المسلم الخضوع لله تعالىٰ عندما يمتثل أمر الله تعالىٰ ويخرج ماله طاعة لله، وتبني تعظيم الله تعالىٰ لأنه يتخلىٰ عن شيء يحبه وهو المال من أجل محبوب أعظم وهو الله تعالىٰ، وتبني الخوف من الله تعالىٰ لأنه يخرجها خوفًا من عقاب الله تعالىٰ يوم القيامة، وتبني الرجاء في الله تعالىٰ لأنه يرجو المثوبة في الجنّة علىٰ إيتائها، وتبني الثقة في الله تعالىٰ في أن يخلفه عوضًا عنها.

4- الصوم:

فرض الله تعالىٰ علىٰ المسلم الصوم شهرًا في السنة، وهو شهر رمضان، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ

(1) المعارج: [24-25].
(2) التوبة: [60].

عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)[1].

ما الذي يبنيه الصوم في نفس المسلم؟

يبني الصوم الخضوع لله تعالىٰ عندما يخضع لأمر الله في الامتناع عن النساء والطعام في وقت محدد، ويبني الخوف من الله تعالىٰ عندما يمتنع عن تناول الطعام والشراب مع قدرته علىٰ تناولهما، ويبني حب الله تعالىٰ عندما يمتنع عن شهوتين محبوبتين لصيقتين بذاته من أجل محبوب أعظم هو الله تعالىٰ، ويبني الرجاء في الله والثقة فيه تعالىٰ عندما يرجو أن يجزل له العطاء يوم القيامة جزاء صيامه.

5- الحج:

فرض الحج علىٰ المسلم في العمر مرة واحدة وهو: قصد بيت الله الحرام طاعةً لله وتعظيمًا، وقد بينت الآيات القرآنية بعض مناسكه: من طواف، وإفاضة، ونحر، وفصلتها السنة الشريفة، قال تعالىٰ: (وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ)[2].

فما الذي ينّميه الحج في نفس المسلم؟

ينمّي تعظيم الله تعالىٰ لأنه يقصد بيتًا من بيوت الله تاركًا أهله، باذلًا الجهد والمال، ويبني الخضوع له تعالىٰ لأنه يؤدي أعمالًا بصورةٍ معينةٍ في أوقات معينةٍ،و ينمِي حب الله تعالى لأنه يضحي بمحبوبات كثيرة : أهله و

---

(1) البقرة: [183-184].
(2) البقرة: [196].

ماله و راحته ، وينمّي الثقة والرجاء في الله تعالىٰ لأنه يرجو المغفرة والجنة ويثق في وعد الله، وينمّي الخوف من الله تعالىٰ لأنه يرجو بعمله هذا البعد عن النار.

الخلاصة

رأينا كيف يبني الإيمان والإسلام معاني التأليه في قلب المسلم، وكيف يعالج كل ركن من الأركان جانبًا من جوانب الإنسان، وهذا يوضح عظمة الإسلام، فعندما يؤدي المسلم هذه الأركان بصورتها الصحيحة تتغذىٰ الجوانب المعنوية فيه غذاءً سليمًا، وينتج عن ذلك إنسان سويّ قادر علىٰ مواجهة أعباء الحياة والتأثير فيها، وحائز بفضل الله علىٰ رضوانه وجنته.

والآن بعد أن رأينا كل ذلك سنرىٰ كيف يبني القرآن معاني التأليه كما بناها الإيمان والإسلام.

ثالثًا: دور القرآن في بناء معاني التأليه في ذات المسلم.

يظن بعض الناس أن القرآن رسم لنا فقط معالم الإسلام والتشريع، لكن هذا الظن بعيد عن الصواب، لأن القرآن يحقق بالإضافة إلىٰ ما سبق أنه يبني العقل، ويبني معاني التأليه الأساسية.

ونحن سنختار بعض الآيات التي تتحدث عن بعض مظاهر الكون حيث يظن بعض الناس أن هذه الآيات تنمي تفكير المسلم في أحسن الأحوال، وتبني عقله، لكنها بالإضافة إلىٰ كل ما سبق تبني معاني التأليه الأساسية في نفس المسلم، وسنوضح ذلك من خلال اختيار عدة نصوص قرآنية من سور مختلفة.

النص الأول

قال تعالىٰ: (إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ)(1).

ذكرت الروايات أن سبب نزول هذه الآيات هو أن قوله تعالىٰ: (وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ) نزل علىٰ النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة فقال كفّار قريش: كيف يسع الناس إله واحد، فأنزل الله تعالىٰ قوله: (إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ).

تتحدث الآيات السابقة عن مظاهر وألوان من آيات الله الباهرة: منها خلق السماوات والأرض وهو خلق عظيم في سعته، ووزنه، وانتظام

(1) البقرة: [164-165].

حركته، وقد توصل العلم الحديث إلىٰ أرقام هائلة عن عدد المجرات والنجوم وربما عرف أكثر في المستقبل.

ومن هذه الآيات: اختلاف الليل والنهار: في الظلمة والضياء، في السكون والجلبة، في البرودة والحرارة... الخ...

ومنها: سير السفن العظيمة علىٰ سطح الماء في البحار الواسعة، ونقلها بعض متاع الإنسان وطعامه من مكان إلىٰ آخر، وهو ما كان يعجز عنه العجز الكامل لولا تسخير الله عز وجل لهذه المخلوقات.

ومنها: إنزال المطر من السماء، وإحياء الأرض، فتصبح مخضرة بالزروع والنبات والثمار بعد أن كانت قاحلة.

ومن هذه الآيات بث الدواب بأنواعها المختلفة من إنسان وحيوان وطير تتعايش علىٰ سطح هذه الأرض.

ومنها: تقليب الرياح وتغيير وجهتها من شرق إلىٰ غرب وبالعكس، وتغيير سرعتها من هدوء إلىٰ شدة.

ومنها: تسيير السحاب المعلق بين السماء والأرض، والمحمل بالأمطار الغزيرة ليهطل فوق أرض معينة بإذن الله وقدرته.

إن تلك الآيات السابقة مع أنها متفرقة، معجزة في آحادها، إلا أن العاقل يبصر يد الله الواحد تجمع بين تفاريقها وشتاتها، فلم تصطدم أية ظاهرة مع أخرىٰ بل الكل مسخر للإنسان، متكامل معه، يحقق هدفًا في منظومة الكون السائرة إلىٰ الأمام.

يولّد خلق الله السماوات والأرض والفلك والدواب والرياح والسحاب من العدم تعظيمه تعالىٰ والثقة فيه في ذات الإنسان لأنها مخلوقات عظيمة كما نوهنا، ويحّرك فيه الخضوع له تعالىٰ لأن تلك المخلوقات خاضعة له تعالىٰ لا تخرج عن ناموسه وقانونه وهي أكبر منه، ويستجيش حبه تعالىٰ لأن هذا الخلق مسخّر كله للإنسان يتنعم به: الأرض يمتطيها ويحرثها، ويأكل الخيرات من فوقها وتحتها وداخلها، والفلك يستخدمه في نقل متاعه وحاجاته، والمطر يشربه، والدواب يركبها إلخ...، ومع ذلك فإنك تجد بعض الناس يجعلون من دون الله أندادًا يعظمونهم ويحبونهم كحب الله، لاشك أن هذا منتهىٰ الظلم والابتعاد عن الصواب، لكن المؤمنين يحبونه تعالىٰ أكثر من حب الكافرين لآلهتهم لأن أهواءهم لم تسيطر عليهم،ولم تحجب الحقائق عنهم.

تقدم الآيات السابقة كما رأينا الرد العقلي علىٰ المشركين الذين قالوا:

(كيف يسع الناس إله واحد؟)، وتبني في الوقت نفسه معاني التأليه وتولدّها في نفس المسلم توليدًا ومما يؤكد أن بناءها لمعاني التأليه هدف أصيل انتهاؤها بالحديث عن حب الله، واستنكارها اتخاذ بعض الناس أندادًا من دون الله يتجهون إليهم بالحب، مع أنه يفترض أن يكون الحب كل الحب لله تعالىٰ، لأنه أنعم علينا بالفلك النافعة، وبالمطر المحيي للأرض وبالدواب الكثيرة إلخ... وهو ما أشارت إليه الآيات.

النص الثاني

قال تعالىٰ: (إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ)[1].

خاطبت الآية الناس بالقول (إن ربكم الله) مشيرة إلىٰ آية من آياته وهي خلقه السماوات والأرض، وهو ما يقر به أي إنسان لأنه مغروس في فطرته حتىٰ الإنسان المشرك كما ذكر القرآن الكريم في أكثر من موضع، قال تعالىٰ:

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ)[2].

ويعلمنا الله بعد ذلك بأمرين: أولهما: أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وثانيهما: هو استواؤه علىٰ العرش.

فكيف نتعامل مع هذين الخبرين؟ هل اليوم مقداره خمسين ألف سنة؟ أم ألف سنة كما ورد في بعض الآيات؟ أم له مقدار آخر؟

هل نخضع استواءه تعالىٰ لعقلنا ونبدأ البحث فيه وأنىٰ لعقلنا القاصر أن يبحث في أمر يتعلق بذات الله، وهو القاصر عن أن يبحث في أمور أبسط من ذلك؟

ما المنهج الذي نتبعه في التعامل مع الخبر وأمثاله؟

---

(1) الأعراف: [54].
(2) الزخرف: [9].

لا شك أن أفضل منهج هو الصحابة وتابعيهم لأنهم جماع الخير والنور، وهم قد أثبتوا لله استواء يليق بعظمته وجلاله دون تشبيه أو تمثيل، وهذا خير ما نقوم به ونتبعه.

ثم تتعرض الآية لظاهرة أخرىٰ: هي ظاهرة الليل والنهار، وتتابعهما، وتعبر عن ذلك تعبيرًا جميلًا بأن الله يجعل الليل يلاحق النهار، ويطلبه طلبًا حثيثًا، ويسرع خلفه ولكنه مع ذلك لا يدركه.

ثم تذكر الآية الشمس والقمر والنجوم ذكرًا فقط دون أي تفصيل أو تعقيب وهي آيات باهرات يعرف عنها الإنسان أشياء كثيرة، لأنه يعايشها يوميًا، ويذكر صفة من صفاتها وهي خضوعها لأمر الله في كل أمورها: الشروق والغروب والحركة.

ثم تؤكد الآيات بشكل مطلق أن الخلق والأمر كله لله وحده، وهي نتيجة طبيعية لكل العرض السابق، ثم تنتهي الآية بتمجيد الله والثناء عليه.

إن خلق الله للآيات السابقة جميعًا: السماوات والأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والليل، والنهار، يقتضي منا تعظيم الله تعالىٰ لأنها آيات تدل علىٰ عظمته تعالىٰ وقدرته في خلقها، وعلمه تعالىٰ في تدبير أمرها، وحكمته في حفظها، الخ...

ويقتضي منا كذلك الخضوع له تعالىٰ لأنها خضعت له – تعالىٰ خضوعًا كاملًا في حركتها ودورانها، وهي أكبر منا وأضخم.

ويقتضي من –كذلك حبه تعالىٰ لأنه سخر لنا هذه المخلوقات نستفيد منها فوائد تقوم عليها حياتنا:

فالأرض نمتطيها ونتنعم بما هو فوقها وعلىٰ سطحها وفي جوفها، والشمس نستفيد من ضيائها وحرارتها، والقمر نتنعم بنوره، والنجوم نهتدي بها في ظلمات الليل.

ويقتضي كذلك الثقة به تعالىٰ لأن الرب الذي حفظ الأرض من أن تميل، والشمس من أن تنطفئ، والقمر من أن يسقط، والنجوم من أن تتصادم، والليل والنهار من أن تختل حركتهما: جدير بأن يوثق فيه بما هو أبسط من ذلك من معاش الإنسان ، وبعض حاجاته البسيطة.

إن انتهاء الآيات بتمجيد الله والثناء عليه يؤكد لنا أنه الهدف الرئيسي من الحديث السابق عن مظاهر الكون، ويبرز لنا صحة ما ذهبنا إليه من أن مثل هذا الحديث القصد منه دفع الإنسان إلىٰ تأليه الله – تعالىٰ، بالصورة التي أبرزناها وإننا لم نذهب بعيدًا عندما قلنا ذلك.

إن حديث القرآن الكريم عن آيات واضحة كبيرة مثل السماوات والأرض، والشمس والقمر والليل والنهار...، واستخدامها من أجل التدليل علىٰ تأليه الله تعالىٰ وحده، ودفع الإنسان له، يبرز لنا نهج القرآن في التدليل علىٰ الأمور التي يطرحها، ويقوم هذا النهج علىٰ: وضح القضايا المدلّل بها، فالشمس والقمر، والسماوات والأرض والليل والنهار آيات كبيرة، ويقوم علىٰ مخاطبة الكيان الإنساني كله فالآيات السابقة يتفاعل معها كيان الإنسان جميعه: عقله وبصره وسمعه وذوقة وشمه ولمسه، وخوفه وحبه ورجاؤه، وليس عقله فقط.

النص الثالث

قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾(1).

بدأت هذه الآيات بتقرير عدة أمور هي: إن الله هو الذي خلق السماوات والأرض، وهو تعالىٰ الذي أنزل المطر الذي كان سببًا في نمّو الشجر ونضج الثمر الذي أضحىٰ طعامًا لنا، وهو الذي هيأ الأسباب لتمخر السفن عباب البحر، وهو الذي سخر لنا عدة مخلوقات: الأنهار والشمس والقمر والليل والنهار، ثم يبين الله لنا فضله علينا: وهو أنه آتىٰ العباد من كل ما سألوه، مع أن نعم الله أجل وأوسع من أن تحصىٰ، ومع ذلك فإن الإنسان لا يحمد الله حق الحمد ولا يشكره حق الشكر بل هو ظلوم كفّار.

يقتضي تقرير الآية أن الله الذي خلق السماوات و الأرض من العدم و على غير مثال سابق و هو خلق عظيم يحوي ملايين النجوم و الأفلاك

(1) إبراهيم: [32-34].

تسبح في الفضاء منذ ملايين السنين و إلى ما شاء الله ، يقتضي تعظيمه تعالى .

ويقتضي إنزاله تعالىٰ الماء من السماء أن نعظمه تعالىٰ لأن إنزال المطر تطلب تبخير الماء، وإرسال الرياح، وتحميل السحاب، وحدوث البرق والرعد، تطلب كل هذا، وكثيرًا غيره نجهله، وهذا كله يقتضي تعظيمه تعالىٰ ويقتضي أن نحبه تعالىٰ لأنه أنعم علينا بهذه النعمة التي ترتبط حياتنا بها أشد الارتباط طعامًا وشرابًا، وأن نرجوه تعالىٰ في أن يستمر في إنزاله علينا، وأن نخافه تعالىٰ من أن يحرمنا منه.

ويقتضي تسخيره تعالىٰ لنا الفلك التي تمشي الهوينىٰ علىٰ سطح الماء، أن نعظمه تعالىٰ لأن سيرها احتاج إلىٰ عشرات الموافقات، وأن نحبه تعالىٰ لأن نعمة استخدام السفن نعمة عظيمة ندرك قيمتها لو تخيلنا عدمها كم ستصبح الحياة شاقة وصعبة.

ثم يخبرنا تعالىٰ أنه (سخر لنا الأنهار)، ويقتضي هذا التسخير أن نحبه تعالىٰ لأنه هيأ لنا هذه النعمة فنشرب ماءها، وتشرب منها بهائمنا، ونسقي بها زروعنا، ونركبها في انتقالنا.

ثم يخبرنا تعالىٰ أنه سخر لنا الشمس والقمر وما ينعكس عنهما من ليل ونهار، ويصف الشمس والقمر بصفة دائبين، وهي صفة أصيلة ولصيقة بهما، فالإنسان ينشأ وهو يرىٰ الشمس كل نهار، والقمر كل ليلة، ويموت مخلفًا وراءه تتابعهما، وكذلك الأجيال التي سبقته والأجيال التي تليه إلىٰ أن يشاء الله.

ويقتضي هذا التسخير أن نحبه تعالىٰ وحده لأنه أنعم علينا بأن ذلّل لنا هذه الآيات الكبيرة: الشمس والقمر والليل والنهار.

الشمس بحرارتها التي تعتبر أساسًا في حياتنا.

والقمر الذي نمتع به أبصارنا، ونستضيء به ظلماتنا ونحسب به أيامنا.

والنهار الذي يضيء أيامنا وحركتنا.

والليل الذي يلف أجسادنا ليريحها من عناء النهار.

ثم يأتي التعقيب النهائي الذي يوضح القصد من الحديث السابق: إن الإنسان ظلوم كفّار، شديد الظلم للحق، لا يؤله الله وحده، بل يشرك معه آلهة أخرىٰ، ولا يتوجه إليه بالحب وحده بل يحب آلهة أخرىٰ معه، وهو شديد الكفران والجحود يقابل نعم الله التي لا تحصىٰ بالمعصية وعدم

الطاعة.

النص الرابع

قال تعالىٰ: (أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ)[1].

يخاطب القرآن الناس مستثيرًا أبصارهم: ألم ير الناس؟ ألم يبصر الناس آية عظيمة من آيات الله؟ وهي تحليق الطيور في جو السماء بقدرة الله وإمساكها من الوقع علىٰ الأرض بقوة الله، وهذه الآية يتفاعل معها المؤمنون، ويستفيدون منها لأنهم يرون فيها معجزة من معجزات الله في خلق هذه الطيور، ويبصرون يد الله في تحليقها وفي إمساكها من الوقوع، فيزيد إيمانهم بالله، وتعظيمهم له تعالىٰ.

ثم يخبرنا الله ببعض النعم التي تفضَّل بها الناس وهي أنه جعل بيوتهم سكنًا لهم، وأنه مكنهم تعالىٰ من أن يصنعوا من جلود الأنعام خيامًا خفيفة الحمل في الحل والترحال، ومكّنهم تعالىٰ كذلك أن يصنعوا من أصواف الغنم وأوبار الإبل وأشعار الماعز أثاثًا ومتاعًا إلىٰ حين أن يبلىٰ، إن هذه النعم تقتضي من العبد أن يحب الله وحده وأن يتجه إليه بالحمد والشكر.

ثم يخبرنا الله عن نعمة أخر يتلذذ الأعرابي بها، ويقدّر قيمتها وهي نعمة الظل، وبخاصة عندما يقاسي حر الصحراء اللاهب في الصيف القائظ، فيبين لنا تعالىٰ أنه أوجد هذه النعمة مترافقة مع كثير من المخلوقات التي خلقها.

---

(1) النحل:[79-81].

ثم يخبرنا الله تعالىٰ أنه جعل للناس في الجبال مغاور وكهوفًا يأوون إليها، ويسكنون فيها، ويتحدث الله عن نعمتين أخريين هما: نعمة اللباس وكيف أنها علىٰ مختلف أنواعها تقي الإنسان الحر، ونعمة الدروع التي يلبسها المحارب في القتال، وكيف أنها تحفظه من خصمه أثناء اقتتالهما.

إن هذه النعم تقتضي من العبد أن يحب الله وحده، وتبين الآيات في النهاية أن هذه النعم تقتضي من الإنسان أن يسلم نفسه لله تعالىٰ.

والآن : نستطيع أن نبرز المعاني التالية من خلال شرحنا للآيات السابقة:

1- في الآيات تحريض للإنسان علىٰ استخدام بصره في قوله تعالىٰ: (ألم يروا إلىٰ الطير مسخرات في جو السماء...)، وهو توجيه يتفق مع النهج القرآني القائم علىٰ استخدام جميع الحواس من أجل توليد معاني التأليه في قلب العبد، علىٰ عكس المنهج الكلامي المنطقي الفلسفي الذي علىٰ استخدام العقل وحده في التوصل إلىٰ الحقائق.

2- استعمل القرآن عبارة: (وجعل لكم) خمس مرات في هذه الآيات، وهي عبارة تشعر الناس بأهميتهم عند الله وتستثير مشاعر الحب في قلوبهم نحو الله تعالىٰ عندما يخاطبهم الله العظيم الكريم الغني بأنه خلق لهم قصدًا بمحض إرادته وكرمه وحكمته البيوت التي يسكنونها، والأنعام التي يستعملونها استعمالًا متعددة، والظلال التي يستظلون بها، وأكنان الجبال التي يأوون إليها، والملابس والدروع التي تقيهم الحر وسهام العدو.

3- دعت الآيات إلىٰ تأليه الله تعالىٰ في موضوعين اثنين بشكل صريح:في قوله تعالىٰ: (إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون)، وقوله: (لعلكم تسلمون)، وهذا التصريح يوضح بشكل جلي أحد أهداف القرآن من الحديث عن مظاهر الكون وهو دفع الناس إلىٰ الاستسلام لله تعالىٰ وإلىٰ زيادة الإيمان، ويؤيد ما أبرزناه من معاني التأليه في ثنايا الآيات، وأننا لم نتعسف في النتائج التي توصلنا إليها.

النص الخامس

قال تعالىٰ: (هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ)[1]

يخبرنا الله تعالىٰ بأنه جعل الشمس مصدر ضياء يضيء للناس نهارهم، فيقضون حوائجهم متنعمين به، ثم تنسحب لينبثق القمر وينير ليلهم وهذا من رحمة الله بهم، ثم ينتقل القمر في منازله المختلفة لنحسب بتنقله الشهور، ثم يؤكد الله تعالىٰ لنا أنه لم يخلق هاتين الآيتين عبثًا بل خلقهما بالحق، ومن أجل إقامة الحق وهما ملتزمتان بالحق، فتعالىٰ الله وتنزه عن العبث فيما يخلق وفيما يفعل، ثم يبين الله تعالىٰ لنا أنه إنما يفصِّل الآيات لقوم يعلمون عظمة الله وقدرته، ويستفيدون بالتالي من هذا التفصيل فيزداد إيمانهم بالله وتعظيمهم له تعالىٰ.

ثم تتحدث الآية الثانية عن صور اختلاف الليل والنهار: من ظلمة وضياء، طول وقصر، حرارة وبرودة، جلبة وسكون، وتتحدث عن مخلوقات الله تعالىٰ التي لا تحصىٰ في السماوات والأرض، بعضها نعرفه، وكثير نجهله فيها إبداع الله، وتخضع لناموس الله، ويؤدي هدفًا خلقها الله له، لاشك أن هذه الأمور فيها آيات محركة ومثيرة لقوم لديهم رصيد من تقوىٰ الله، ومخافته، فتزداد تقواهم وخشيتهم لله تعالىٰ، في حين أن الكافرين يمرون بهذه الآيات دون أن تثير فيهم شيئًا نحو الله تعالىٰ.

والآن يمكن أن نبرز المعاني التالية من خلال تدبر الآيات السابقة:

1- تقرير فعل الله في عناصر الكون مثل: الشمس والقمر، وهو ما يوجه المؤمن نحو ربه بالحب والتعظيم والسؤال.
2- الربط بين الحق وبين عناصر الكون، وأن خضوعها لم يأت عبثًا أو صدفه إنما هو إذعان لحق، مما يدفع المؤمن إلىٰ الخضوع لله تعالىٰ.
3- توضيح أن المستفيد من تلك الآيات هم العالمون المتقون الذين

(1) يونس [5-6].

يعلمون عظمة الله وقدرته، ويخافون ناره ومقامه فيزداد تعظيمهم لله وخوفهم منه تعالىٰ، وفي هذا توجيه للمسلم إلىٰ العلم والتقوىٰ المرتبطين بتعظيم الله وخشيته.

النص السادس

قال تعالىٰ: (أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ) [1].

يخاطب الله الإنسان موجهًا بصره إلىٰ تسخير كل ما في الأرض لصالحه: من نبات وحيوان وجماد، سواء أكان علىٰ ظهرها أم في باطنها، أم مما يحيط بها، كله مذلل مطوع وهذا يقتضي حب الله – تعالىٰ علىٰ نعمة التسخير.

ثم تنتقل الآيات بعد الحديث العام عن تسخير ما في الأرض إلىٰ الحديث الخاص عن ظاهرة تسخير السفن العظيمة في البحار الكبيرة، ثم ينبه الله تعالىٰ إلىٰ أنها تجرىٰ بأمره تعالىٰ وحده، وربما يكون ذلك جليًا واضحًا في تحريكه تعالىٰ للريح الذي يرتبط جريانها به، وهذا يقتضي حبه تعالىٰ علىٰ هذه النعمة.

ثم يوضح الله تعالىٰ لنا أنه تعالىٰ هو الذي يحفظ السماء من أن تقع علىٰ الأرض، وهي المبنية بغير أعمدة، والمنتصبة دون اتصال، ولا شك أن هذا التسخير وهذا الحفظ يشير إلىٰ رأفة الله بالناس ورحمته بهم، إذ يسخر لهم ما لايحصىٰ من المخلوقات والنواميس التي يساهم في حفظهم ورعايتهم، وهذا يقتضي تعظيمه لقدرته علىٰ حفظ السماء من الوقوع علىٰ الأرض.

ثم تتحدث الآية الثانية عن ظاهرة يعيشها الإنسان وهي أنه أحيانا بعد أن كنّا عدمًا وهي ظاهرة مدهشة، ثم يميتنا، ثم يحيينا، والإنسان حي بين نعمتي الإيجاد والإمداد، وهذا يولد تعظيمه تعالىٰ فينا، والخضوع له لقدرته علىٰ الإحياء والإمانة ثم الإحياء مرة ثانية.

---

(1) الحج: [65-66].

ومع كل هذه الآيات الباهرات التي تقتضي تعظيم الله وحبه، فإن الإنسان في غالب أحيانه لا يشكر الله بل يكفره، ولا يحب الله وحده بل يحب معه غيره، ولا يعظم الله وحده بل يعظم معه أندادًا آخرين.

والآن يمكن أن نبرز المعاني التالية من خلال تَّدبر الآيات السابقة:

1- جاء السؤال بصيغة: (ألم تر...) حثًا علىٰ إعمال حاسة البصر عند الإنسان، وهو مما يتفق مع النهج القرآني في إعمال الإنسان كل حواسه من أجل بناء معاني التأليه في ذاته.
2- تأتي عبارة (سخّر لكم) مستثيرة حب الإنسان لله عندما يعلم أن الله تعالىٰ سخّر له كل ما في الأرض من حيوان ونبات وجماد ليستخدمه فيما يشاء من طعامه وشرابه ومتاعه.
3- يعتمد بناء التأليه أو الدعوة علىٰ أشياء كونية بارزة مثل تسخير ما في الأرض والفلك، والسماء والأرض، وهي كبيرة ويتفاعل معها الكيان الإنساني كله.
4- إن انتهاء الآية بقول تعالىٰ: (إن الإنسان لكفور) يوضح أن أحد أهداف الحديث القرآني السابق عن خلق الإنسان وإماتته وبعثه أن يكون الإنسان شكورًا،لكن الإنسان في واقع حاله كفور، وهو ما يجب أن يسعىٰ إلىٰ تغييره لأنه الأولىٰ والأوجب نحو النِّعم التي أنعمها الله عليه.

النص السابع

قال تعالىٰ: (أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا)

(1).

يخاطب الله الإنسان موجهًا بصره إلىٰ الظل الذي يستظل به من حر الشمس اللاهب، ومنبهًا علىٰ خاصية امتداده الملازمة له، والتي تتسع بها مساحة الظل لينعم بها الإنسان، ويعود الفضل في امتداده إلىٰ الله تعالىٰ لأنه لو شاء لجعله ثابتًا في مساحته وفي جهته، وقد جعل الله تعالىٰ الشمس دالة علىٰ جهة الظل ومساحته، فإذا كانت الشمس في الشرق كان الظل في الغرب، وإذا كانت الشمس منخفضة كانت مساحته أوسع، ويتصف الظل في كل أحواله بالليونة والسهولة واليسر، فعندما يقبضه الله في المساء عند غياب الشمس، فإنما يتم قبضه بيسر وسهولة ودون ضجيج ودون جلبة، ألا تقتضي هذه النعمة أن نعظم الله لأنه خلقها، وأن نحبه لأنه يسرها لنا.

ثم تتحدث الآيات عن نعمة أخرىٰ: وهي خلق الله لليل الذي يلف جميع الناس، حتي يصبح لهم لباسًا يسترهم بظلامه كما يستر اللباس جسم الإنسان، ثم تتحدث الآية عن نعمة ملازمة لليل وهي النوم،حيث يغفو الجسم المكدود المرهق الذي أتعبه السعي والهم فيصحو معافىٰ نشيطًا ليعاود الكدح مرة ثانية، ثم تتحدث الآية عن نعمة أخرىٰ،: وهي جعل النهار نشورًا، وكأنه بعث جديد للإنسان بعد ظلام الليل الدامس وبعد الموتة الصغرىٰ في النوم، لينتشر ويتحرك ويواجه أعباء الحياة بحيوية جديدة.

ثم يتحدث الله عن نعمة أخرىٰ: هي نعمة إرسال الرياح التي تأتي مبشرة بالمطر، الذي وصفه الله بأنه رحمة، وهو فعلًا رحمة الله بالأرض العطشىٰ، والبهيمة الظمأىٰ، وكبد الإنسان الحرّىٰ، وقد وصفه الله تعالىٰ في نهاية الآية بالماء الطهور الذي يحي البلد الميت، ويروي حيوانات وبشرًا كثيرًا، ألا تقتضي هذه النعمة أيضًا كسابقتها أن نعظم الله لأنه خلق الماء الطهور، وأن نحبه تعالىٰ لأنه يسّره لنا، وأن نرجوه تعالىٰ من أن يوقف مطر السماء من التدفق.

وقد قلّب الله الآيات، ليتذكر الناس عظمة الله وقدرته ولكنهم أَبَوْ إلا الكفران.

والآن يمكن أن نشير إلىٰ المعاني التالية من خلال تفهمنا للآيات السابقة:

1- نلحظ إبراز الآيات لفعل الله في ظواهر الكون عندما يخاطب الإنسان في الآيه الأولىٰ (ألم تر إلىٰ ربك كيف مدّ الظل) وكأنها

---

(1) الفرقان: [45-50].

تأخذ ببصر الإنسان أخذًا ليبصر كيف أن الله يمد الظل ويقبضه ثم تشير إلىٰ إرادة الله الطليقة في أنه لو أراد لجعله ساكنًا لا يتحرك، ثم تشير إلىٰ فعل الله في إرسال الرياح، وإن مثل هذا الإبراز لفعل الله في الكون يوّلد التعظيم في قلب العبد لله.

2- تشير الآية الأخيرة إلىٰ كفران أكثر الناس، وهو تصريح واضح إلىٰ أن النعم التي تحدثت عنها الآيات: الظل والمطر تقتضي الشكران، وهو ما يجب أن تولده تلاوة تلك الآيات في قلب العبد، وتبنيه في نفسه، وهو أحد الأهداف الرئيسية من حديث الله عن تلك الظواهر الكونية.

النص الثامن

قال تعالىٰ: (ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ) [1].

تشير الآية الأولىٰ إلىٰ إحدىٰ النعم الإلهية علىٰ الإنسان تتجسد في جعل الليل ساكنًا للإنسان تهدأ حركته فيه، وترتاح أعصابه، ويستجمع طاقته للنهار التالي، وتشير إلىٰ نعمة أخرىٰ هي جعل النهار مضيئًا، وعبّر عن ذلك بكلمة (مبصرًا)، وكأن الإنسان استمد الإبصار ليس من بصره الذي خلقه الله فيه، ولكن من صفة الإبصار التي اتصف بها النهار، فالنهار مبصر والإنسان بالتالي يبصر ويرىٰ فيه، وهاتان النعمتان كبيرتان في ميزان النعم، وتظهر قيمتهما في حال تقدير زوالهما: فلنتصور حالة الإنسان فيما مستمر، وقد عبّرت الآيات في موضع آخر عن هذا المعنىٰ

(1) غافر: [61-63].

فقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ أيضًا: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [2].

ولا شك أن استمرارهما من أفضال الله علىٰ الإنسان ويقتضي أن نعظم الله وحده وأن نحبه وحده لأنه أنعم علينا بهما، وأن نشكره وحده تعالىٰ، ولكن تجد الناس لا يعظمون الله ولا يشكرونه تعالىٰ.

ثم يذكر الآية الثانية الناس بحقيقة يعرفونها مفادها أن الله خالق لكل شيء يرونه ويسمعونه ويحسونه ويتذوقونه ويشمونه في كل السماوات والأرض، ويقتضي هذا الخلق أن نعظمه وحده، وأن نخضع له وحده، وأن نحبه تعالىٰ وحده، ومع ذلك تجد الناس يشركون مع الله آلهة في تعظيمه وطاعته لذلك تنتهي الآية بسؤال تخاطب فيه الناس وتستنكر أن ينصرفوا إلىٰ غير تأليه الله تعالىٰ فتقول: أين تنصرفون؟!

ثم توضح الآية الأخيرة أن هذا الانصراف إلىٰ غير الله ليس أمرًا جديدًا، فقد انصرف من قبلهم أقوام كانت تجحد بآيات الله.

والآن يمكن أن نبرز المعاني التالية علىٰ الآيات السابقة:

1- إن انتهاء الآية الأولىٰ بقول تعالىٰ (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) فيه دعوة صريحة إلىٰ شكر الله الذي هو مزيج من تعظيمه تعالىٰ وحبه، وهو أحد المقصودات من الحديث عن ظاهرتي الليل والنهار.
2- إن مخاطبة الناس بقوله تعالىٰ: (جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) تستثير حبهم لأنها تبين أن الله خلق لهم الليل والنهار قصدًا لأجلهم ولصالحهم.

النص التاسع

---

(1) القصص: [71].
(2) القصص: [72].

قال تعالىٰ: (﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾)[1].

تبدأ الآيات بتقرير حقيقة أن الله يشق الحب والنوىٰ ليخرج منه النبت والشجر، وهو الذي يخرج النبات الحي الأخضر النامي من البذرة الميتة، وكذلك يخرج النواة الميتة من النبات الحي، هذا فعل الله وخلقه الذي يتم بقدرته وعلمه وحكمته ولا أحد غيره يفعل مثل هذا، وأنتم أيها الناس ترون النبات النامي بألوانه المختلفة بأبصاركم، وتشمون الرائحة الجميلة لبعضه بأنوفكم، وتأكلون كثيرًا من ثمراته بأفواهكم، وتقرون بأن الله هو الذي فعل كل هذا، ألا يقتضي هذا تعظيمه تعالىٰ علىٰ إخراجه الحي من الميت؟ ألا يقتضي الخضوع له؟

ثم يحدثنا الله تعالىٰ عن ظواهر أخرىٰ هي أعظم من الأولىٰ وهي الليل والنهار والشمس والقمر، فيلفت أنظارنا إلىٰ ظاهرة انبلاج الصبح: وهي مهجزة عظيمة رائعة جميلة تستثير كل كيان الإنسان عندما تنبثق الشمس حمراء يحيط بها الشفق الأحمر الدامي لتبدأ بالارتفاع في عنان السماء، والمهم أن الله وحده هو الذي يجعل الصبح الجميل ينبثق بعد ظلام الليل الداكن، ثم يحدثنا الله عن جانب واحد من جوانب الليل هو أنه جعله

(1) الأنعام: [95-99].

ساكناً ، نسكن فيه ونهدأ وتغمض أعيننا لنستسلم للراحة والاستجمام .
ثم يكلمنا الله عن فائدة واحدة من فوائد الشمس والقمر وهي أنه يحسب بهما الأيام والأشهر وهي فائدة أدركها الإنسان منذ أن اعتلىٰ ظهر هذه البسيطة، ويدركها الإنسان المعاصر كذلك، ولا شك أن دقة حركة الشمس والقمر، و استمرار تتابع الليل و النهار كل ذلك يوحي بعظمة الله و علمه تعالى ، ألا يقاضي ذلك تعظيمه والخضوع له وخوفه ورجاءه والثقة فيه وحمده تعالىٰ.
ثم يخبرنا الله عن خلق آخر وهي: النحوم ويذكر فائدتها التي استفادها الإنسان منذ القديم، وهي اتخاذها علامات للاهتداء في التنقل والأسفار.
ويستثير شعور الإنسان بكلمة (جعل لكم) ويبين الله تعالىٰ أنه قد فصَّل هذه الآيات.
وحقيقةً إن آيات الله في مجال النجوم ليست آيات مجملة، بل هي آيات مفصلة اكتشف الإنسان منها ملايين النجوم، وما زال يكتشف منها الملايين، ومازال نطاق المجهول واسعًا أمامه، ومع ذلك فإن هذه الآيات المفصلات يستفيد منها العالمون بعظمة الله وجلاله، فيزيدهم تعظيمًا لله وتمجيدًا وحمداً.
ثم يخاطب الله عز وجل الناس بأمر آخر هو أنه خلقهم من نفس واحدة، فمستقر في الأرحام ومستودع في الأصلاب، ولا شك أن تنوع أشكال الناس وألوانهم وطبائعهم مثار عجب لا ينتهي بعد أن جاءت جميعها من نفس واحدة، وهذا التنوع هو أحد أسباب عمران الحياة البشرية بالإضافة إلىٰ تطور خلق الإنسان من نطفة المستودع إلىٰ علقة المستقر، ثم أجهزته العجيبة: من أعصاب وأمعاء، وبصر وسمع، وقدراته الفريدة: من خوف ورجاء وتعلق...إلخ كل هذه الآيات قد فصّلها الله تعالىٰ لكي يستفيد منها الذين يفقهون، وهم الذين يعظمون الله فيزداد تعظيمهم له بعد فقههم هذه الآيات.
ثم يكلمنا الله تعالىٰ عن آية أخرىٰ هي نزول الماء من السماء، وإنباته البذور المخزونة في الأرض فتكون نباتًا أخضر ذا حب متراكب كالقمح حينًا ، و تكون نباتًا دانية حينًا آخر، وتكون حبات من أعناب في حين ثالث، أما أشجار الزيتون فتجدها متشابهة في أغصانها وفي ترابتها التي تنبتفيها، وغير متشابهة في ثمرها وطعمها، وتلك آية من آيات الله تعالىٰ، ألا يقتضي ذلك تعظيمه وحبه وخوفه ورجاءه والثقة فيه وحمده تعالىٰ.

ثم يأمر الله الناس أن ينظروا إلىٰ النباتات ونضجها، إذا أثمرت ونضجت، ولا شك أن الأمر بالنظر هو توجيه قرآني مباشر للإنسان باستخدام البصر في تنمية الإيمان، وتوجيه غير مباشر بعدم الاقتصار علىٰ العقل وحده، ثم يأتي التعقيب في النهاية: إن الأشخاص الذين يمكن أن يستفيدوا من هذه الآيات هم المؤمنون، فيزداد إيمانهم ويقينهم بالله تعالىٰ.

والآن يمكن أن ننبه علىٰ المعاني التالية من خلال تدبر الآيات السابقة:

1- الأمر بالنظر وهو نهج جديد يشقه القرآن في عالم الإنسان من أجل استخدام الوسائل المناسبة لإقامة عالم الهداية في ذات الإنسان، وهو نهج يخالف الاتجاهات الفلسفيية التي قامت علىٰ اعتماد العقل وحده والتي أثرت في كثير من أبناء المجتمع الإسلامي.

2- إن الآيات استخدمت لمرتين متتاليتين: (قد فصلنا الآيات)، وفي هذا إشارة إلىٰ أن الدلائل القرآنية دلائل كبيرة واضحة يسمعها الإنسان ويبصرها، ويتعامل معها بعقله وعواطفه: رجاءٌ وخوفًا وحبًا وتعظيمًا، وهي تختلف عن دلال العلوم الأخرىٰ التي تتصف بأنها صغيرة في بعض الأحيان، وتحتاج إلىٰ كد الذهن وتجريده من أجل معرفتها.

إذن يبني القرآن معاني التأليه في ذات المسلم بالإضافة إلىٰ ما بناه الإيمان والإسلام، ويقيم دلائله بشكل خاص ومتميز عن دلائل العلوم الأخرىٰ.

وقد أكدت السيرة بناءه لمعاني التأليه، ونحن سننقل حادثتين منها توضحان ذلك فيما يلي من الصفحات.

شواهد من السيرة علىٰ بناء القرآن لمعاني التأليه

مما يؤكد بناء آيات القرآن لمعاني التأليه ما نقلته كتب السيرة في حادثتين:

الأولىٰ: سجود المشركين عند سماعهم سورة النجم:

فقد روىٰ البخاري في صحيحه (باب فاسجدوا لله واعبدو) حديثين قال في أولهما: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (سجد النبي صلى الله عليه وسلم بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس).

وقال في ثانيهما: حدثنا نصر بن علي، أخبرني أبو أحمد يعني الزبيري، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الأسود بن يزيد، عن عبد الله رضي الله عنه قال: (أول سورة انزلت فيها سجدة والنجم، قال فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد من خلفه إلاّ رجلًا رأيته أخذ كفًّامن تراب فسجد عليه فرأيته بعد ذلك قتل كافرًا هو أمية بن خلف).

إذن سجد المشركون مع الرسول صلى الله عليه وسلم عند سجوده، وهم الكافرون بمحمد ورسالته، فبم نفسّر هذا السجود؟

نجد تفسيره في الآيات الأخيرة من سورة النجم التي تحدثت في بيان رائع عن إضحاكه تعالىٰ وإبكائه، وعن إماتته وإحيائه، وعن خلقه الزوجين، وعن بعثة لهما، وعن إغنائه من يشاء، وعن ربوبيته للنجوم، وعن إهلاكه للأمم السابقة، وولدّت تعظيم الله في قلوبهم الذي دفعهم إلىٰ السجود الذي هو المظهر العملي للتعظيم، يقول تعالىٰ:

(وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ

﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟)[1].

الثانية: خوف عتبة بن ربيعة عند سماعه آيات من سورة (فصّلت):

فقد روىٰ ابن كثير في تفسيره ناقلًا عن بعض كتب الحديث تدارس قريش بشأن محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته، واتفاقها علىٰ أن ترسل أحكمها وأعلمها، فقرّ قرارها علىٰ عتبة بن ربيعة الذي كلم الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أحدثته دعوته في تفريق شأن قريش، وأغراه بالسلطان، والمال، والنساء، ثم سأله الرسول صلى الله عليه وسلم: (فرغت)؟قال: نعم؛ فبدأ بتلو الرسول صلى الله عليه وسلم آيات من سورة فصّلت إلىٰ أن وصل إلىٰ قوله تعالىٰ: (فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)، فصاح عتبة كما تذكر إحدىٰ الروايات وقال له: حسبك، حسبك، ماعندك غير هذا، وأمسك عتبة بفيه تذكر رواية أخرىٰ وناشده الرحم، ورجع إلىٰ أهله ولم يخرج إلىٰ قريش، واحتبس عنهم.

وتنقل رواية ثالثة أن عتبة قال: (فأمسكت بفيه (أي بفم الرسول صلى الله عليه وسلم)، وناشدته بالرحم أن يكفّ، وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب.

تلتقىٰ الروايات جميعها علىٰ أمر واحد: هو خوف عتبة بن ربيعة من تنزل العذاب حتىٰ إنه أمسك بفم الرسول صلى الله عليه وسلم وناشده الرحم.

إذن: ولّدت الآيات الخوف عندما عرضت بعض مظاهر من قدرة الله العظيم الذي خلق الأرض، ثم خلق الجبال، وقدّر الأقوات، ثم خيّر السماء والأرض بين المجيء طائعتين أو كارهتين، فأختارتا المجيء طائعتين، ثم هددتهم الآيات إن أعرضوا عن الإيمان بصاعقة مثل الصاعقة التي أهلكت عادًا وثمود.

لنقرأ الآيات التي حرّكت الخوف في قلبه، يقول تعالىٰ:

(حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا

(1) النجم: [43-62].

لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) [1].

إذن سجود المشركين عند سماعهم آيات القرآن الكريم مع عدم إيمانهم بأن هذا الكلام من عند الله، وصيحة عتبة بن ربيعة التي أطلقها خوفًا عندما تلا عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بعض آيات من إحدىٰ السور يظهر أن جانبًا من أثر القرآن في بناء معاني التأليه، وتحريكها في قلب الإنسان.

لم يكتف الإسلام بأن شرع التشريعات التي تبني معاني تأليه الله في نفس العبد، بل حصّنها من كل ما يمكن أن تتسرّب إليه، ونحن سنرىٰ في الصفحات التالية كيف حصنها، ومم حصّنها.

---

(1) فصلت:[1-13].

تحصين معاني التأليه في نفس المسلم

إن أبرز ما يمكن أن يتسرب التأليه إليه: الأشخاص سواء في حياتهم أم في مماتهم، وقد كان هذا أوسع باب للضلال ساق الأمم السابقة موارد التهلكة وبالذات مع أنبيائهم، لذلك أكد القرآن علىٰ بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالىٰ:

(قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ) [1]، وقال تعالىٰ:

(سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا) [2].

وقد وجّهت الآيات القرآنية الرسول صلى الله عليه وسلم أن يربط أي فعل له بمشيئة الله عز وجل، قال تعالىٰ:(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا) [3].

وقد أمرت الآيات القرآنية الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلن عدم تملكه لخزائن الله، وعدم علمه للغيب، وأنه ليس ملكًا وأنه متبع لوحي الله،قال تعالىٰ:(قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ)[4].

وقد تحدث القرآن عن بعض أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم ومخالفته للأولىٰ فيها من أجل التأكيد علىٰ بشريته صلى الله عليه وسلم وقد جاء ذلك في حادثتين كما ذكر القرآن الكريم.

الأولىٰ: حادثة عبد الله بن أم مكتوم حينما عاتبه الله تعالىٰ علىٰ إعراضه عنه فقال تعالىٰ في ذلك: (عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ

---

(1) الكهف:[110].
(2) الإسراء:[93].
(3) الكهف: [23-24].
(4) الأنعام: [50].

لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ)[1].

الثانية: أسرىٰ بدر، عندما نفذ الرسول صلى الله عليه وسلم الفداء وكان القتل هو الأولىٰ، فقال تعالىٰ: (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ)[2].

وقد وجه الرسول صلى الله عليه وسلم صحابته إلىٰ أن لا يطروه كما أطرت النصارىٰ المسيح بن مريم فقال: (لا تطروني كما أطرت النصارىٰ عيسىٰ بن مريم فإنما أنا عبد ولكن قولوا عبد الله ورسوله)[3].

وقد كانت علاقته صلى الله عليه وسلم بصحابته في منتهىٰ البساطة، بعيدة عن أي تمييز في أي مجال: طعامه أو شرابه أو لباسه أو معاشه الخ...

الخلاصة: إن الإسلام عندما حصّن المسلمين من الانحراف في علاقتهم برسولهم حيًا مع حبهم له حفظ له تأليههم لله تعالىٰ ليأخذ مجراه الصحيح.

أما بالنسبة للأشخاص في حال مماتهم فقد حرّم الإسلام رفع القبور، وحرّم شد الرحال لها، وسؤالها، والتبر ك بها، كل ذلك لأن فيها امتصاصًا لطاقة التعظيم التي يجب أن تتجه إلىٰ الله تعالىٰ.

ومما يرتبط بتنظيم الأشخاص سواءً في حياتهم أم في مماتهم: تصويرهم وتمثيلهم، وقد حرم الإسلام هذين الصنفين فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة المصورون [4] وقال أيضًا:(لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا تصاوير) الخ...

وقد شدد الإسلام النكير علىٰ خلق الكبر، واعتبر كبيرة كفيلة أن يحرم المسلم من دخول الجنة كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن الجنة لايدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)[5] وسبب ذلك أن الكبر تعظيم

---

(1) عبس: [14].
(2) الأنفال: [67-68].
(3) رواه الإمام البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(4) صحيح البخاري: باب عذاب المصورين يوم القيامة، كتاب اللباس.
(5) صحيح البخاري: باب التصاوير، كتاب اللباس، رواه مسلم.

للذات، وهو مناقض لتعظيم الله، وامتصاص كامل لطاقة التعظيم عند العبد.

الخلاصة

يبني الإيمان والإسلام والقرآن معاني التأليه في قلب المسلم، فيجعله معظمًا لله وحده، خاضعًا له وحده، محبًا له أكثر من كل محبوبات الدنيا، خائفًا من ناره، راجيًا جنته، واثقًا به تعالىٰ أكثر من كل الأشياء والأشخاص.

ولم يكتف الإسلام بالتشريعات التي تبني معاني التأليه، بل حصنها بتشريعات تمنع تسر بها، وحصيلة الأمرين: البناء والتحصين، وثمرتها أن تتطهر النفس من كل أمراضها اللاصقة بها، وإن تفلت من تأثير الشيطان وغوايته، ويتم ذلك من خلال قاعدة البناء والهدم: بناء تعظيم الله الذي يهدم تعظيم المال والأشخاص والأشياء والأسباب، بناء الخوف من اليوم الآخر الذي يهدم رعب النفس من الأشخاص والأشياء، اليوم الآخر الذي يهدم رعب النفس من الأشخاص والأشياء، بناء حب الله الذي يتفوق علىٰ حب الشهوات، وقد أشارت أكثر من آية إلىٰ قاعدة البناء والهدم فذكرت أن العروة الوثقىٰ المتينة التي تنجي العبد في الآخرة والدنيا تكون بالكفر بالطاغوت وبالإيمان بالله، أي بهدم الطاغوت في القلب وبناء الإيمان بالله، قال تعالىٰ:

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

وذكرت أن البشرىٰ تكون لمن يجتنب عبادة الطاغوت وينيب إلىٰ الله، أي بهدم عبادة الطاغوت وبناء الإنابة إلىٰ الله:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ ﴾[2].

ونحن الآن سنستعرض بعض ثمرات عملية البناء والهدم الناتجة عن نماء معاني التأليه والمؤدية إلىٰ تطهير نفس المسلم من أمراضها ومن غواية الشيطان.

---

(1) البقرة: [256].
(2) الزمر: [17].

بعض ثمرات بناء معاني التأليه

إن تأليه الله تعالىٰ يطهر النفس من أمراضها، ومن أبرز هذه الأمراض: اتباع الأهواء، الهلع، الشُّح، الطغيان، اليأس، ونحن سنرىٰ حقيقة كل مرض وكيف يعالجه التأليه:

1- سيطرة الهوىٰ:

قد تعظم الشهوات في نفس الإنسان، فيتعلق بها، ويخشىٰ عدم إروائها، ويعطيها حجمًا أكبر من حقيقتها، فتصبح هوىٰ جامحًا يسيطر عليه، وقد يقوده ذلك إلىٰ مستنقع الشرك الذي يوّحل كرامته الإنسانية التي اختصه الله بها حيث قال: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[1] ، ويسلب شخصيته، فيصبح أسوأ من الدواب حيث قال تعالىٰ:

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[2].

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[3].

لكن تأليه المسلم لله تعالىٰ يبرئه من هذا المرض ويطهره منه، لأن أحد مقتضيات تأليه الله تعالىٰ أن يعظم الله تعالىٰ الذي خلق الشهوة، وأمده بأسباب إروائها، ويقدر وحده تعالىٰ علىٰ حرمانه منها، لذلك تراه يستمتع بالشهوات مثل غيره، لكن دون أن تستعبده، أو توحّل كرامته، أو تمسخ كيانه الإنساني.

---

(1) الإسراء: [70].
(2) الأنفال: [22].
(3) الأعراف: [179].

2- الهلع:

قال تعالىٰ: (۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا)[1].

وصف الله تعالىٰ الإنسان بكثرة الخوف الذي ينغص عليه حياته، ويدمرها في بعض الأحيان، وهو يخاف من كل شيء.

لكن المسلم عندما يؤله الله وحده، يخاف مقامه وعذابه يوم القيامة، ويركن إلىٰ الله ويثق فيه تعالىٰ، يولّد ذلك في نفسه اطمئنانًا وأمنًا، ولأن خوفه اتجه إلىٰ أمر يقيني في حين أن خوفه السابق كان من أمر ظني، لذلك نجد أن القرآن حصر الأمن بفئة واحدة هي التي آمنت ولم تخلط إيمانها بأي شرك، مما يدل علىٰ أن الشرك هو الذي يولد القلق والخوف، قال تعالىٰ: (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ)[2]، واعتبر أن ذكر الله يولد الاطمئنان فقال تعالىٰ: (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ)[3].

ودعا المؤمنين إلىٰ ذكر الله عند لقاء العدو لأنه يساعد في الثبات، قال تعالىٰ: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ)[4] .

3- الشح:

أكدت بعض الآيات الشح في طبع الإنسان، ووصفته بالتقتير مرة، وبالمنع مرة أخرىٰ، قال تعالىٰ: (قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا)[5].

(وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا)[6].

إن الشح مزيج من تعظيم المال والثقة فيه والخوف من فقدانه، وعدم

---

(1) المعارج: [19-20].
(2) الأنعام: [82].
(3) الرعد: [28].
(4) الأنفال: [45].
(5) الإسراء: [100].
(6) المعارج: [21].

الثقة في تعويض الله له، فلذلك عندما يؤله المسلم الله تعالىٰ ويعظمه وحده، ويوقن أنه تعالىٰ يحفظ العبد ويعينه، ويقضي حاجته وليس المال، ويوقن كذلك أنه تعالىٰ قادر أن يتلف له كل ما حرص علىٰ حفظه وتخبئته فإن ذلك التأليه يطهر النفس من مرض الشح.

وتأتي فريضة الزكاة لتدرب النفس علىٰ العطاء، وتقلل حجم الشح في النفس.

4- الطغيان في حالة الاغتناء:

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ﴾[1]، ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾[2].

إن الطغيان والتكبر في حقيقة تعظيم للمال أو للذات أو للسبب بشكل عام، لذلك عندما يؤله المسلم الله لا يصح عظيم في قلبه إلا الله، فعندما تأتيه أية نعمة: مال، أو ولد، أو منصب، فإنها لاتفقده توازنه بل يبصر يد الله فيها، وأنها وصلت إليه بإذن الله، ويعرف أنها فضل من الله لذلك يعظم الله: يحمده لاجتراحها له، ويشكره لأنه وهبها له.

5- اليأس في حالة الشدة:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴾[3]، ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا﴾[4].

اليأس في حالة الشدة هو عدم ثقة في الله، وفي رحمته تعالىٰ، فعندما يؤله المسلم ربه وحده تعالىٰ، فإنه لا يمكن أن ييأس في حالة الشدة لأنه يثق بربه تعالىٰ، وإن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن الله يريد له الخير في كل ما يصيبه، وأن الله رحيم واسع الرحمة أوجبها علىٰ ذاته كما قال: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ ﴾[5].

---

(1) الإسراء: [83].
(2) العلق: [67].
(3) هود: [9].
(4) الإسراء: [83].
(5) الأنعام: [12].

6- العجلة:

وصف الله تعالىٰ الإنسان بالعجل، فقال تعالىٰ: (وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا)[1].

وقال تعالىٰ: (خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ)[2].

وعندما يؤله العبد ربه وحده، فإن هذا التأليه يشفيه من مرض التعجل، فلا يستعجل قدوم الخير ولا دفع الشر، لأنه يثق بأن الله حدد له أوانًا لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

هذه ثمرات بناء معاني التألية في نفي المسلم؛ أما بالنسبة للشيطان فهو أول أعداء المسلم، وذو أساليب متعددة في الغواية والتأثير عليه.

ونحن سننقل ما ذكره القرآن عنه، وعن أساليبه في إضلال الإنسان وإغوائه، ثم سننقل ما قاله – تعالىٰ عن نجاة عباده المؤلهين، له – تعالىٰ وحده، من كل تأثيراته.

---

(1) الإسراء: [11].
(2) الأنبياء: [37].

الشيطان: أساليبه وكيف يبطل مفعولها

بيّنت آيات الله لنا أن طريق الشيطان مخالف ومناقض لطريق الله المستقيم، وحذرتنا من اتباع خطواته، فقال تعالىٰ:

(كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)[1].

وقال تعالى: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)[2].

وقال تعالىٰ: (۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[3].

وأمرتنا بمعاداته، قال تعالىٰ: (إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ)[4].

وقد بين القرآن أن للشيطان عدة أساليب للتأثير علىٰ الإنسان منها:

1- الإيعاد وبث الأماني:

يقول تعالىٰ: (يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا)[5]، (وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا)[6].

(1) البقرة: [168-169].
(2) البقرة: [208].
(3) النور: [21].
(4) فاطر: [6].
(5) النساء: [120].
(6) الإسراء: [64].

2- تزيين الأعمال الباطلة:

يزيّن الشيطان للإنسان أعماله الباطلة حتىٰ يستغرقه الباطل، فقد حدثنا القرآن عن بعض الأقوام الكافرة ودور الشيطان في تزيين أعمالها، فقال تعالىٰ: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴾[1].

وحدثنا القرآن كذلك عن دور الشيطان في تزيين أعمال أقوام آخرين دون تحديدهم، قال تعالىٰ: ﴿ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[2].

ويوضح لنا القرآن دور الشيطان في إضلال أهل سبأ وتزيين أعمالهم، فيذكر الهدهد ذلك لسليمان عليه السلام فيقول:

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾[3].

ويبين لنا القرآن أيضًا دور الشيطان في تزيين أعمال مشركي قريش قبل غزوة بدر، ونكوصه بعد أن رأىٰ الملائكة تنزل لتقاتل في صف المسلمين، قال تعالىٰ:

﴿ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾[4].

3- الوسوسة:

من أكبرالوسائل التي يستعملها الشيطان في إرهاق ابن آدم وإضلاله الوسوسة، وقد بدأ استعمال هذا السلاح مع آدم وحواء عليهما السلام كانت

---

(1) العنكبوت: [38].
(2) الأنعام: [43].
(3) النمل: [24].
(4) الأنفال: [48].

نتيجة ذلك إغواءهما وإخراجهما من الجنة، يقول تعالىٰ: (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ)[1]، (فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا)[2].

وقد طلب الله منا التعوذ من وسوسته فقال تعالىٰ: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ)[3].

4- النزغ:

ينفخ الشيطان في روع الإنسان ليزيد من غضبه وإضلاله وقد أمرنا الله بأن نعوذ به عند حدوث ذلك النزغ، فتُبطِل قدرة الله آنذاك فعل الشيطان ونزغه، يقول تعالىٰ:

(وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[4].

5- الإنساء:

ينسي الشيطان الإنسان يقول تعالىٰ مخاطبًا محمدًا صلى الله عليه وسلم : (وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)[5].

وتبين آية آخرىٰ أن الشيطان عندما يستحوذ علىٰ الإنسان ينسيه ذكر الله، يقول تعالىٰ: (ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ)[6].

لذلك كان ذكر الله هو الوسيلة لاسترجاع المنسي، يقول تعالىٰ:

---

(1) طه: [120].
(2) الأعراف: [20].
(3) الناس: [1-6].
(4) الأعراف: [200].
(5) الأنعام: [68].
(6) المجادلة: [19].

(وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ)[1].

6- الوعد بالفقر والأمر بالفحشاء:

بيّن الله تعالىٰ لنا في محكم تنزيله أن الشيطان يعد المؤمن بالفقر ويأمره بالفحشاء، ويقول تعالىٰ:

(ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ)[2].

7- إيقاع العداوة والبغضاء:

يهدف الشيطان أن يوقع العداوة والبغضاء بين المسلمين في بعض تصرفاتهم وأمورهم، فقد أخبرنا الله -تعالىٰ بهدف الشيطان هذا في مجال الخمر والميسر، فقال تعالىٰ: (إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ)[3].

وقد وضّح القرآن الكريم لنا في بعض الآيات أن الشيطان لا تأثير له علىٰ عباد الله المخلصين الذين عمر الله قلوبهم، وأقاموا معاني التأليه في صدورهم، يقول تعالىٰ:

(إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ)[4].

(إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا)[5].

(إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ)[6].

وقد اعترف الشيطان نفسه بالحقيقة السابقة، فاستثنىٰ عباد الله الخالصين من غوايته، قال تعالىٰ: (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ)[7]

الخلاصة: إن الشيطان يعد، ويزّين الأعمال الباطلة، ويوسوس،

---

(1) الكهف: [24].
(2) البقرة: [268].
(3) المائدة: [91].
(4) الحجر: [42].
(5) الإسراء: [65].
(6) النحل: [99].
(7) ص: [83].

وينزغ، ويَيْئسي؛ ويعد بالفقر، ويأمره بالفحشاء، ولكن دوره يبقىٰ خارجيًا، فإذا كان هناك إخلاص لله من العبد، وتأليه كامل، بطل كل ذلك، واندحر كيده إلىٰ صدره.

والسؤال الذي يمكن أن نورده في نهاية بحثنا هو: فيمن تحققت كل الأمور السابقة؟

من فهم (العقيدة) بالصور التي حدّدناها؟ ومن أقام معاني التأليه في قلبه؟ ومن تطهير نفسه من كل أمراضها؟ ومن استطاع أن يفلت من غواية شيطانه؟

سنجد الجواب علىٰ الأسئلة السابقة في الفقرة التالية:

الصحابي المثال

ليس من شك بأن الصحابي خير من فهم أن (العقيدة) في المنهج القرآني هي كلمة (لا إله إلا الله) وخير من أقام معاني التأليه وحصنها، وخير من تطهر من أمراض الإنسان، وانفلت من غواية الشيطان.

وقد كان ذلك الصحابي نموذجًا فريدًا علىٰ مدار التاريخ في كل شيء: في حيويته وإيجابيته، واندفاعه وسرعة تغييره للواقع، ونظافته ونظامه، وجنديته وقيادته الخ... وهو ما يمكن أن نحّبر به المجلدات الطوال لكن نريد أن نفهم فقط نقطتين: كيف وجهته تلك (العقيدة) القرآنية إلىٰ طاعة الله، وإلىٰ التأثير في الواقع؟

لقد استعذب الصحابي تنفيذ أوامر الله، فعندما جاء أمر الله بالهجرة، أو بالتآخي، أو بترك الخمر، أو بالجهاد الخ... أطاع ذلك ونفّذه: لأن نفسه خاضعة لله مسبقًا، ومعتادة ذلك، ولأن الله عظيم عندها، فأمره بالتالي عظيم، ولأنها محبة لله فهي حريصة علىٰ تنفيذ أوامره، لأنها راجية جنة الله في طاعتهما، خائفة من ناره تعالىٰ عند عصيانها، واثقة بحكمة الله من أمره.

أما توجيهه إلىٰ التأثير في الواقع فهو إفراز طبيعي لامتلاء نفسه بتأليه الله: تعظيمًا وحبًا وخوفًا ورجاء، وخلوها من الشرك حيث سيدفعه هذا الامتلاء إلىٰ تطويع الواقع الخارجي حسب امتلائه الداخلي، وتلوين الخارج بألوان الداخل، وهو مصداق قوله تعالىٰ:

﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[1].

(1) الأنبياء: [18].

الخاتمة

حدّدنا إذن –فيما سبق من خلال القرآن والسنة المشرفة: (العقيدة) و(أصل الدين) ورأينا التباين الكبير بين ما حبرته (كتب العقائد) المعتمدة في القرون الأخيرة، وبين ما ذكره القرآن الكريم والسنة المشرفة، وهو يعلل لنا أصل مرض المسلم المعاصر، وسر استمراره، ويوضّح لنا كيفية برئه وشفائه.

إن (العقيدة) كما حددتها كتب العقائد المتأخرة أن تثبت وجود الله، وأن تعرف صفاته، ويقوم ذلك علىٰ دلائل من علوم أخرىٰ مثل علم الكلام والمنطق والفلسفة.

وقد رأينا القضية الأولىٰ قضية فطرية، وأن القضية الثانية قضية مرتبطة بأصول الاستسلام لله تعالىٰ، أما الاستعانة بالعلوم الأخرىٰ فرأينا الويلات التي جرتها، وكيف أنها لم توصل والجاً إلىٰ برّ بّلٍ تركته تائهًا في كل بحر.

لكن (العقيدة) المطلوبة من المسلم كما حددها القرآن هي (كلمة لا إله إلا الله) أي أن يؤله الله وحده، وأبرز معاني التأليه التي يجب أن يحققها المسلم هي: تعظيمه تعالىٰ: والخضوع له، وخوفه، ورجاؤه، وحبه، والثقة فيه.

ثم تأتي أركان الإيمان والإسلام وآيات القرآن فتبني معاني التأليه وترسخها وتنميها في كيان المسلم فيبرأ آنذاك من كل الأمراض التي تعتري الإنسان مثل: سيطرة الأهواء، والرعب، والشح، والبطر، والقنوط، والعجل، وتلاعب الشيطان به، ويصبح بالإضافة إلىٰ كل ما سبق: إيجابيًا (المسلم الصحابي)، وهو المسلم الذي نحتاجه في وقتنا الحاضر.

إذن لنعد إلىٰ القرآن الكريم والسنة المشرفة ولنأخذ منهما (العقيدة) بكل تفصيلاتها: المضمون، والدلائل، والأسماء، والعناصر، الخ...

حتىٰ يتولّد لدينا مرة ثانية (المسلم الصحابي) الذي سيكون مفتاح (تغيير الواقع) وإقامة الحق في الأرض، كما غّيره في المرة الأولىٰ.

تم بحمد الله

فهرس المحتويات

الموضوع

الصفحة